في بلاط النجاشي

محمد محمود النجدي

في
بلاط النجاشي

محمد محمود النجدي

في بلاط النجاشي.. جرتْ لي وقائعُ جسيمة، أحدثتْ لي تغيراتٍ عظيمة.. جعلتني أنقلب من النقيض إلى النقيض؛

وقائعٌ اقتلعتْ –من وِجْدَاني- قيماً.. ورسَّختْ قيماً أخرى مضادةً لها، ولستُ أُبالغ.. إذ أقول أنَّها زلزلتْ وجداني.. فجعلتني أُزلزل الأرض تحت أقدام ملوك.. وأُحطِّم عروشهم.

هزَّتْ قلبي.. وفتَّحتْ بصيرتي؛ فأبصرتُ النور.. بعدما كنتُ أتخبَّط في الظلمات، انتشلتني من أوحال الباطل التي كنتُ غارقاً فيها؛

فاهتديتُ إلى الحق، ووهبتُه نفسي.. ليسخِّرني –حيث شاء- كيما يهتدي إليه الناس.. مثلما اهتديتُ،

انبعثتُ أدعو إلى الحق وأدافع عنه.. بعدما كنتُ أُحاربه!!

في بلاط النجاشي

محمد محمود النجدي

00201004607502

المحتويات:

الفصل الأول: ..... صفحة (٤)

الفصل الثاني: ..... صفحة (٢٦)

الفصل الثالث : ..... صفحة (٦١)

الفصل الرابع : ..... صفحة (٨٨)

الفصل الخامس: ..... صفحة (١١٣)

الفصل السادس: ..... صفحة (١٢٥)

-الفصل الأول-

في بلاط النجاشي.. جرتْ لي وقائعٌ جسيمة، أحدثتْ لي تغيراتٍ عظيمة.. جعلتني أنقلب من النقيض إلى النقيض؛ وقائعٌ اقتلعتْ -من وِجْداني- قيماً.. ورسَّختْ قيماً أخرى مضادةً لها، ولستُ أُبالغ.. إذ أقول أنَّها زلزلتْ وجداني.. فجعلتني أُزلزل الأرض تحت أقدام ملوك.. وأُحطِّم عروشهم.

هزَّتْ قلبي.. وفتَّحتْ بصيرتي؛ فأبصرتُ النور.. بعدما كنتُ أتخبَّط في الظلمات، انتشلتني من أوحال الباطل التي كنتُ غارقاً فيها؛ فاهتديتُ إلى الحق، ووهبتُه نفسي.. ليسخِّرني -حيث شاء- كيما يهتدي إليه الناس.. مثلما اهتديتُ، وانبعثتُ أدعو إلى الحق وأدافع عنه.. بعدما كنتُ أُحاربه!!

لكنَّ حكايتي لم تبدأ **في بلاط النجاشي**؛ بل كان مبتدأها في مكانٍ بعيدٍ عنه، في جزيرة العرب؛ بالتحديد.. في واديٍ غير ذي زرع.. شحيح الماء، تُحاصره الجبال الجرداء والصحراء القاحلة.. من كل جهة.

وادي.. لا يصلح أنْ يعيش فيها إنسان، وإنْ عاش؛ فلن يحلم بأكثر من شربة ماء وكسرة خبز.. وظلٍّ يستظل به من لهيب الشمس الحارقة.

أَمَّا أنْ يحلم بأنْ يُغيِّر العالمَ مِن حوله، أنْ يدمِّر صروح الباطل، أنْ يُقوِّض عروش ملوك القهر، أنْ يَدُكَّ حصون أباطرة الاستبداد والجهل، أنْ يتوَهَّم أنَّه يملك قوةً يمحو بها الظلمة والجهل.. ويقلبها نوراً وهدى، فهذا هو المستحيل عينه؛ بل.. إنَّه ضربٌ من الجنون!!

لكن في ذلك الوادي المُجدِب.. أراد الله أنْ يهب قومي الحياة رغم الجدب والقحط؛ فأرشد إبراهيم وإسماعيل إلى بناء بيته الحرام، ودعا العربَ لأنْ يَحُجُّوا إليه.. ويقصدوه مُعظِّمين ومُبجِّلين؛ فجاؤوه –**من كل حدبٍ وصوبٍ**- رجالاً وركباناً.. يحملون الهدايا والقرابين، وكذا.. مضوا يجلبون أوثانهم وأصناماً لآلهتهم.. يجعلونها حول البيت الحرام.. ليعظِّموها ويعلو شأنها، طفقوا يأتونها بالخيرات، ويقدِّمون لها النذور والذبائح والقربات، وفي ذلك.. خيرٌ كثيرٌ يعمُّ قومي، وشرفٌ عظيمٌ.. يعلو به قدرهم؛ فأقاموا حول البيت.. بخير مقام؛ ينعمون في السعة والترف، ويتقلَّبون في العزة والشرف.

تسألون: "**مَن قومي؟؟!**"؛ إنَّهم قبيلة قريش؛ هل أحدٌ –**على وجه البسيطة**- يجهل قريش؟!!

تسألون: "مِن أي بطونها؟؟"؛ **أنا**.. مِن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي؛ فأنا.. عمرو بن العاص بن وائل السهمي.

بالطبع لن أَقُصَّ عليكم تاريخ قومي؛ فأيامهم مشهورةٌ.. معلومةٌ عند كثيرٍ من الناس، إنَّما سأكتفي بما يَخُصُّني؛ سأكتفي بحكايتي مع بلاط النجاشي.

بيد أنَّ تلك الحكاية تبدأ –**كما أسلفتُ**- من مكة، في قبيلة قريش.. حيث كان أبي (**العاص بن وائل السهمي**) وخليله (**عبد الله بن جدعان التيمي**).. شابين من شباب مكة، يمرحان.. كما يمرحون، ويعبثان.. كما يعبثون؛ غير أنَّهما كانا فارسين جَسورين.. وكان فيهما شغبٌ وتمرُّد، ورغم الفروسية والجسارة.. كانا فقيرين!!

ورغم أنَّهما مُملِقان.. إلا أنَّهما لا ينفكان –كل ليلة- عن ارتياد سامر الفاكه بن المغيرة المخزومي؛ يتنادمان معه.. لا لشيءٍ سِوَى التلذُّذ بخمره.. والاستماع إلى غِناء **النابغة**!!! وما أدراكم: مَن النابغة؟! وما جمال النابغة.. وحسنها؟! وما عذوبة صوتها؟!!

إنَّها غادةٌ حسناء.. تتبدَّى في سامرهم؛ فكأنّما تَنزَّل البدر لهم من عليائه، تخطُر –بدلال- في ثوبها الناعم المزركش.. فتُشعّ فتنةً وبهاءً، وإذا تناولتْ دُفّها ونقرتْ عليه بكفها الرقيق.. وصدحتْ بصوتها العذب؛ فإذا هم يتمايلون.. ويصفقون، ثم تزيدهم.. فيتراقصون، وتزيدهم.. فيترنحون ويثملون من مَلَاحَة غنائها؛ ولهذا لُقِّبتْ بالنابغة.

أَمَّا هي.. فكانت امرأةً شابة.. مغلوبةً على أمرها؛ اسمها الحقيقي: (سلمى بنت حرملة).. من بني جلاّن بن عتيك، قديماً.. سطا صعاليك العرب على ديار قومها؛ فاستلبوها –هي وبعض الفتيات- وباعوهنّ في سوق عكاظ؛ فاشتراها الفاكه بن المغيرة المخزومي القرشي.

وأمام ذُلِّ العبودية وعذاب الاسترقاق.. استسلمتْ سلمى لواقعها الجديد، وتعايشتْ مع حياة الرِّقّ، وأنشأتْ تنحت بأظفارها –في صخرمكة- جُحْراً.. ولو كجُحْر الضَّبّ؛ لتحيا فيه -هي ورفيقاتها الضعيفات- .. ولو نصف حياة!!

فيما أولئك الشباب لاهون.. وفي سكرتهم يعمهون، وبينما أهل مكة يتنعَّمون بالأمن والأمان في جوار البيت الحرام، ويتمتَّعون بما يَرِد عليهم من الخيرات والثمرات، بينما هم –جميعاً- غافلون؛ إذ داهمهم جيشٌ كثيف..

يتقدَّمه فيلٌ مُخيف، جاء يغزوهم.. ويحاصر مكة.. ليهدم الكعبة؛ بيتَ الله الحرام.. الذي يرتعون في حماه.. وينعمون في جواره.

جيشٌ.. يقوده أبرهة الذي نصَّبه النجاشي (عظيم الحبشة) مَلِكاً على اليمن، فزعتْ القلوب، وتزلزتْ الأرض تحت الأقدام.

تساءل الناس مذعورين:

"ما لنا.. والنجاشي؟!! لِمَ ينقم علينا عظيم الحبشة؟!!"،

"وما لنا ومَلِك اليمن؟؟! لماذا يغزونا أبرهة الحبشي.. بجيشه العرمرم؟!!".

أتاهم الجواب –من أبرهة الأشرم.. نفسه- :

- ينبغي أنْ نهدم هذا البيت العتيق؛ قد شيَّدنا كنيسةً عظيمةً في صنعاء اليمن.. وسمّيناها (القليس)، وأعلمنا بها النجاشي.. فبارك فعلنا ورضي به، ولن ننتهي حتى نُخرِّب هذا البيت، ونصرف عنه العرب.. ليَحُجُّوا إلى القليس!!

ثم أضاف.. مُحذِّراً.. مُنذِّراً:

- يا أهل مكة! أمهلتُكم ثلاثة أيام.. لا أكثر؛ فارتحلوا عن مكة.. وخَلُّوا بيني وبين هذه الكعبة لأهدمها، ثم أرحل عنكم بسلام.. إلى اليمن؛ فليس لي حاجةٌ.. بقتالكم!!

أذعن أهل مكة.. وخضعوا، حملوا نساءهم وأطفالهم، وارتحلوا -صاعدين إلى رؤوس الجبال- في خنوع، قبعوا ينتظرون أنْ يفرغ أبرهة وجيشه من هَدْم الكعبة؛ هَدْم أمنهم وأمانهم.. وعزّهم وشرفهم!

غير أنَّ الجيش الزاحف تَوَقَّف، وأحجم الفيل العظيم عن تحطيم البناء المقدس، رغم محاولات السائسين والجنود المستميتة.. ليدفعوه ويُحرِّكوه؛ امتنع.. ولم يتحرَّك، انحبس الجيش الهائل عن الدخول إلى البيت الحرام.

ثم انبعث عليهم –مِن جهة البحر- طيرٌ كثيف.. أمثال الخطاطيف؛ مع كل طائرٍ منها ثلاثة أحجار يحملها؛ حجر في منقاره وحجران في رجليه.. **أمثال الحمص والعدس، لا تصيب أحداً منهم إلا هلك!؟**

ذهل المَلِك وجنوده.. وارتعبوا، ما انفكوا يصرخون هلعين:

- **أين المفر.. من الطير الأبابيل؟! كيف النجاة.. من الحجارة السجيل؟!**

لكن.. كيف الفرار –أيها البائسون- والإله الطالب.. وأنتم المطلوبون، ومَلِكم الأشرم.. ليس بغالب؛ بل.. هو المغلوب؟!!

انقضتْ سحابة النهار؛ وأمسى الجيش الغليظ كعُصافَة التِّبْنِ أو كالهشيم اليابس، ثم نزلتْ قريش إلى الوادي.. لتغنم متاع جيش الفيل وسلاحه.. بعد أنْ تشرذم.. وهلك أغلب رجاله، وليتعاظم عزّها وشرفها.. في كافة أرجاء جزيرة العرب وخارجها، وليتحدَّث الناس: أنَّ الإله الأعظم.. دافع عن كعبته، وأنَّ رب البيت يحميه.. ويحمي حجّابه ورقّاد حجيجه، لا غالب لإله قريش، ولا بيتٌ أعزّ من كعبتها، ولا دينٌ خير من دينها!

*****

عادتْ الحياة إلى مكة أفضل مما كانت، وانساحتْ تجارة قريش في الآفاق، ومضتْ قوافلها.. تغدو وتروح في أمنٍ وأمانٍ واطمئنان؛ فمَن ذا الذي

يتجاسر.. ويهاجم قوافل سدنة البيت الحرام ورفّاد حجيجه، استشرى الغنى في ربوع مكة، واستفحلتْ ثروات أكابر تُجَّارها وأثريائهم.
أشراف قريش ووجهاؤها.. أصبحوا يتكاثرون في الأموال والأولاد، ويزدرون الفقراء والضعفاء.
رجال مكة وشبابها.. يتسابقون إلى كسب الأموال، يجهّزون القوافل.. ويسارعون بالارتحال.. إلى الشام والعراق واليمن.
أَمَّا **العاص بن وائل** وخليله **عبد الله ابن جُدعان**.. فتثاقلا، لم يكونا عاجزين.. لكن مُتكاسلين؛ التصقا بحانات مكة ومجالس سمرها ولهوها.. ولا سيما **النابغة** وغنائها وطربها.
تخلَّفا عن الركبان المتسابقين إلى الثراء والتكاثر في الأموال، حتى نديمهما **(الفاكه بن المغيرة المخزومي)** انشغل عنهما وعن السامر.. بالتجارة والارتحال مع القوافل الغادية والرائحة، ولا غرو.. فالفاكه من بيت عزٍّ ونفوذ؛ فآل المغيرة المخزومي صاروا أغنى وأعزّ بيتٍ في قريش.. بل في مكة بأسرها.

و نقم جُدعان التيمي على ولده الخمول المشاغب.. حتى أنَّه طرده من الدار؛ بل.. وأهدر دمه، وأغرى به اللئام والفُتَّاك؛ فاضطرب الابن الشاب.. واحتار، وما وجد مغيثاً يغيثه.. ولا جاراً يجيره، وما عثر على ملجإٍ يلتجئ إليه؛ إلا أنَّ العاص.. قال له في حميَّةٍ وإباء:

- أُثبتْ.. يا ابن العم! سيفي معك على عدوك، ونحري.. دون نحرك!

لكنْ.. ضاقتْ الأرض بابن جُدعان.. وضاق صدره، وانطلق هارباً من مكة.. فارّاً من أبيه.. ومِن طلاب دمه المهدور.

هام على وجهه -حائراً بائراً- في شِعاب الجبال، اختبأ في المغارات أياماً.. حتى قرصه الجوع وهَدَّه العطش، لم يجد منجى من الموت البطيء.. خلا أنْ يسرع هو إلى الموت العاجل؛ طفق يقتحم جحور الحيّات.. عسى أنْ تلدغه إحداها؛ فكأنَّهنّ تأبَّينّ عليه.. وترفَّعنّ عن قتله.

أصابه اليأس في مقتل.. لكن لم يسلبه روحه البائسة؛ عجز عن الموت العاجل، ولا سبيل إلا انتظار أنْ يموت -رويداً- موتاً بطيئاً!؟

في غارٍ نائيٍ معزول.. بات ليلته يتلوَّى من الذُّلِّ والجوع، يتمنَّى أنْ تشفق عليه إحدى الحيّات، تحنو عليه؛ فتلدغه.. لعلَّها تُنهي عذاباته سريعاً.

بيد أنَّه وجد خيراً مما تمنَّى؛ عثر على كنزٍ عظيمٍ **(من كنوز جرهم الأقدمين)**: ذهبٌ وفضةٌ وياقوت.. و لآلئ وجواهر، وجد من ذلك.. شيئاً كثيراً؛ اضطرب فرحاً، وخفق قلبه طرباً.. حتى كاد يقفز من بين ضلوعه.

لبث ليلته –**بجوار الكنز**- يتفكَّر.. حتى أنَّه نسي جوعه وعطشه، ثم ارتأى أنَّ ذلك الكنز هبةٌ إليه من الإله الأعظم الذي أهلك جيش أبرهة.. لينظر كيف يصنع إنْ صار غنياً؛ وها هو ذا قد صار غنياً.. بل أغنى رجلاً في العرب!!؟

عقد العزم، وقرَّر أنْ يتصرَّف في هذه الكنوز كما يحب الإله الكريم؛ سيكون سَخياً جواداً.. كما كان الإله جواداً معه.

أخفى الكنز في شقٍّ منقور في غار الجبل، ثم أخذ منه بعض حاجته، ثم عَلَّم باب الغار.. بعلامات خفية لا يفطن إليها أحدٌ سِواه.

ثم هبط إلى مكة.. في غفلةٍ من أهلها، عرَّج على تاجرٍ يهودي.. وباعه شيئاً من الجوهر، ثم سدَّ جوعه وعطشه، وانطلق إلى صحن الكعبة!!

نادى في الناس أنَّه نادمٌ على ما مضى، على شغبه وإفساده في الأرض.. وعلى عقوقه لأبيه وقومه، وأقسم: أنَّهم لن ينالهم منه –**بعد الحين**- إلا الخيرات والعطايا، وابتدرهم.. فبَذَرَ فوق رؤوسهم ذهباً وفضةً.. حتى انصرف الناس -**من بين يديه**- وهم مُعجبون مُتعجِّبون!!

ما انفك –**في قابل الأيام**- يغدق على الناس.. ويمنحهم جزيل العطايا والهبات، طفق يُطعم الجائع.. حتى يُشبعه، ويعطي المحتاج.. حتى يقضي حوائجه؛ فأحبه الناس.. ونسوا له ما فات، وعظَّموه.. حتى ساد بينهم، وكلما قل ما في يده.. اِنْسَلَّ إلى ذلك الغار؛ فأخذ ما يكفيه.. ثم رجع.

اغتنى ابنُ جدعان.. وتفحَّش جاهه وسؤدده، وغدا يشارك أكابر التُجَّار في قوافل تجارتهم، وطمع الناس –**كل الناس**- في كرمه وسخائه.. إلا ما كان من نديمه (**العاص بن وائل**)؛ فقد كان أبي أعفّ الناس عن مال خليله وعطاياه. عاتبه –**ذات مرة**- هامساً:

- يا ابن وائل! الناس يسارعون إلى أعطياتي فيأخذون ما يشتهون.. إلا أنت؛ فلِمَ؟!! لا أحسبك تحسدني على ما حاباني به الله!!؟
- حاشاني أنْ أفعل.. يا أبا زهير! وإنَّك لتعلم حبي لك، وأنّي أسعد الناس بما وهبك الله؛ غير أنّي أكره أنْ يكون حبي لك –**كما سائر الطامعين في كرمك**- لأجل هبةٍ أو عطية، بل أحب أنْ يظلَّ التآلف بيني وبينك –**كما كان**- خالصاً.. لا مصلحة فيه ولا مطمع!!

- سيظلّ –يا ابن وائل- سيظلّ! وستبقى أنت أحب قريش إليّ.. وأقرب أصحابي إلى قلبي؛ فلن أنسى أنَّك أنت الوحيد الذي ناصرتني -إذ شَرَّدني أبي وأهدردمي- في حين تخلَّى عني الناس، ولم أجد مفراً من حياتي البائسة.. سِوَى الموت!!؟
- هذا حق الخليل على خليله.. يا ابن جُدعان!!
- قد وفيتني حقي؛ وواجب عليّ أنْ أُوفيك حقك! خذ من مالي ما شئتَ.. يا ابن وائل؛ فواللات.. ما تأخذه أحب إليّ مما تدعه!!
- بارك الله لك في أموالك.. يا أبا زهير! لكنَّك تعلم أنّني أُنزِّه نفسي عن أنْ أستجدي أحداً، وأحب أنْ أعيش من كسب يدي!!
- أنت وشأنك! لكن.. اعلم أنَّ مالي هو مالك؛ ولك ما تريد.. متى شئتَ! أَمّا الآن.. فهَلُمَّ إلى سامر الفاكه المخزومي؛ نسكر من خمره.. ومن غناء جاريته: **النابغة**!
- أَمّا هذه.. فلا بأس بها!!

توالتْ السهرات، وتواصلتْ حفلات السمر -والطرب والغناء- التي تجمع الرجل الثَرِيّ الجَوّاد.. مع خليله العفيف رغم إملاقه، ومع الغادة الفاتنة (النابغة).. وكثيرٍ من الندماء والخلطاء.

في تلك الآونة.. كان ابن جدعان يحيا أسعد أيام حياته؛ حالما كان العاص يعيش أتعس أيامه!!؟

لاحظ ابن جدعان عليه التجهُّم والكدر، وانتبه للكآبة التي تلازم خليله؛ فقدَّر أنَّ شيئاً يزعجه ويُنغِّص عليه حياته، سأله.. واستحلفه أنْ يصارحه.. وألا يُخفِي عنه سره، فلمَّا ألحَّ عليه.. كاشفه العاص بما يختلج في صدره:

- **النابغةُ**!! قد أَسَرتْ عقلي، وسَبَتْ قلبي حتى صار طيفها لا يفارق خيالي.. لا في نومٍ.. ولا في يقظة!!
- أ تعشق أمةً مملوكةً يتناوب عليها الرجال.. أسياداً وأَوْبَاشا؟! هل تعقل ما تقول.. يا فتى بني سهم؟!!
- أجل!! ليس لي سلطانٌ على قلبي كيما يعشق مَن أشاء، بل هي التي سلبتْ قلبي من بين جنبيّ.. حتى لم أعد أستطيع العيش بدونها!!؟
- إنَّها قَيْنَةٌ.. لا تردّ يد لامس.. ولا عين مُشتهي، وأحسب أنَّ قلبها مَشاعٌ بين الرجال!!؟
- وهذا ما يؤرِّقني.. ويقضّ مضجعي!! على أنّي حين أتدبَّر في أمرها.. أتساءل: هل جريرتها أنْ خطفها اللصوص من قومها.. فبيعتْ سبيّةً في الأسواق؟!! أم.. هي آثمةٌ لأنّها هضيمة الجناح؛ استضعفها النَّخَّاسون والأسياد.. فظلموها وأطمعوا فيها الرجال؟!! هل ستبقى على تلك الحال.. إذا انتشلها رجلٌ كريمٌ؛ فأكرمها وأحسن إليها؟!
- ويها.. يا ابن وائل! تريدها لك وحدك.. إذاً!!؟
- أجل.. يا ابن العم!! وددتُ لو أستخلصها من أيادي الطامعين! وددتُ لو أنتزعها من مزابل الحانات والآثام!!
- إذاً.. فاشتريها من صاحبها! اشتريها من الفاكه المخزومي!!

- يا ليتني أستطيع.. يا أبا زهير!؟ إنَّك تعلم ضيق ذات يدي.. وقلة متاعي؛ والفاكه لن يفرط في قَيْنَة –كالنابغة- بغير مالٍ كثير!!

تبسَّم الصديق الكريم.. وربت على كتف صاحبه المُتيَّم.. هامساً بحماسٍ:

- أبشر.. يا ابن وائل! تالله.. لن تبيتَ الليلة إلا والنابغة ملك يمينك!!

تساءل العاص بنبرةٍ حائرةٍ يائسة:

- أَنَّى ذلك.. يا أبا زهير ؟!!

هتف ابن جدعان حاسماً.. وبنبرةٍ واثقةٍ ودودةٍ:

- أنا أشتريها لك! وإنْ طلب فيها الفاكهُ قنطاراً من ذهب؛ فلن أَضِنَّ عليك به.. يا صاحبي!!

*****

وَفَّى ابن جدعان بوعده، ونال العاص بغيته.. وتحقَّقتْ أمنيته، وباتتْ النابغة في بيته وهو يملكها.. ولا سيد لها غيره.

رغم افتقاره.. أحسن استقبالها وضيافتها، عاملها كسيدةٍ مُكرَّمة.. لا كأَمَةٍ مُبتاعة؛ امتنَّتْ له، اعترف لها بحبه؛ فبكتْ بين يديه، ولا يدري: هل بكاؤها حزناً.. أم فرحاً؟! **هل هي حزينةٌ.. لأنَّها لا تزال تباع وتشترى كالأنعام؟! أم.. فَرِحةٌ لأنَّها وقعتْ تحت يد سيدٍ يكرمها؟!! أم.. ربما تبكي تحسُّراً على حال فتياتها وأخواتها اللاتي لم يزلن محبوساتٍ كالبهائم.. موقوفاتٍ لإمتاع الأسياد!!؟**

طيَّب خاطرها، و وعدها –إنْ أخلصتْ له- أنْ يحسن إليها، وإلى أخواتها الضعيفات.. قدر استطاعته، وصدق حدسه فيها؛ فقد أخلصتْ له بإحسان بَيِّن؛ فأكرمها.. وتزوَّجها، وأصبحتْ -**بعد أنْ كانت سَبيَّة تباع وتشترى**-

زوجةً وفيةً.. لرجلٍ شَهْمٍ كريم، وصارتْ سيدة الدار.. بعد أنْ كانت أَمَةً مملوكةً كما المتاع.

تعاقبتْ عليهما الأيام والليالي، وتزايدتْ محبتها في قلبه.. وتعاظم قدره في عينها؛ رأته رجلاً سمحاً شهماً.. كريماً رغم فقره، وفارساً شجاعاً.. عاقلاً رشيداً، خليقاً بأنْ يعلو شأنه.. ويسود قومه؛ لكنَّه غافلٌ.. عن القوة الكامنة في ذاته، وعن سمات السيادة الظاهرة في سَمْته.

قرأتْ صفاته وميزاته.. حتى صارتْ أعلم به من نفسه، وما برحتْ تحفِّزه.. وتثير طموحه، طفقتْ تُشجِّعه على السعي إلى الثراء والسيادة.. فتقول:

- يا زوجي الحبيب! أنت سيدي.. وتاج رأسي! لم أرَ أكرم منك.. ولا أرشد منك.. ولا أشجع منك؛ فلماذا تبخس نفسك حقها؟!! لماذا تزهد في سيادة قومك.. وأنت أجدر بها منهم؟!!
- يا سلمى! إنَّ السيادة تستلزم امتلاك الثروة والأموال؛ وإنَّك تعلمين ضعف حالي.. وقلة مالي!!
- وأيم الله -يا حبيبي- إنَّك لستَ بعاجز عن كسب الأموال وجَنّي الثروات؛ لكنَّك.. تتكاسل عنها، ولو أنَّك تمسكَّتَ بعلو الهِمَّة، وأطلقتَ العنان لطموحك يركض بك في الآفاق؛ لصرتَ أغنى أهل هذا الوادي، ولأصبحتَ سيده المطاع!!
- تحلمين –يا سلمى- أنْ يكون زوجكِ أغنى من عبد الله بن جدعان؟!!
- مَن ابن جدعان؟! إنْ هو إلا رجلٌ صادف حظّاً حسناً.. فعثر على الكنوز التي يزعم أنَّه يملكها!!؟ لكنَّه لا يملك رجاحة عقلك.. ولا

ذكائك ومهارتك.. ولا شجاعتك وحزمك.. وحسن تدبيرك؛ وإنّي أشهد: أنَّك –**إنْ عزمتَ وسعيتَ- لأصبحتَ خيراً منه!!**

- كيف.. ذلك؟!! إنَّكِ تهوني الأمر.. كأنَّه سباق بين فرسي رهان!
- لستُ أهونه، إنَّما أعلم أنَّك تستطيع أنْ تصنع قدرك بنفسك.. بعقلك وعزيمتك؛ ولستَ كصاحبك.. **الذي صنعته صدفةٌ عابرة!!**

ما زالتْ تغريه وتحمِّسه.. حتى ألهبتْ عزيمته وفجَّرتْ طموحاته؛ فداعبته الآمال والأمنيات، وانطلق يسعى في الأرض.. يُنقِّب عن الثروات، ويبتغي سيادة قومه، ابتدأ بتجارةٍ صغيرة وطموحٍ كبير، بعيرٌ هزيل.. يحمل حِمْلاً ضئيلاً، يسحب خطامه.. حاملاً آمال عريضة بين جنبيه.

تَحَوَّل العاص إلى رجلٍ متوَهِّج الطموح.. حديد الفؤاد.. متَوَقِّد الذهن، ما برح يسعى سعياً دَؤوباً.. ويجوب الآفاق.. ويُوَسِّع تجارته، وفي أمدٍ قصير.. أصبح البعير الهزيل.. بعيرين.. فثلاثة.. ثم بضعة عشر بعيراً.

بذكائه ومهارته ولباقته وحسن معشره.. تفوَّق على كثيرٍ من أقرانه التُجّار **القرشيين وغير القرشيين**؛ تحدَّث عنه حاسدوه.. فقالوا:

- **المكاسب والأرباح.. تهرول وراءه أينما ذهب**؛ إنَّه لذو حظٍّ عظيم!؟؟

أَمّا هو.. فيُجيبهم.. مُخبِراً عن نفسه:

- إنَّما أنا تاجرٌ أريب؛ بالفراسة والتَفَحُّص.. أبحث عن السلعة الرائجة.. ذات المكسب الجيد، وباللباقة والكياسة.. أروِّج بضاعتي للمشتري الجاد، وبحضور البديهة.. والإصابة بالظنّ -**واستنباط ما سيكون بما قد كان**- أجوب البلاد وأرتاد الأسواق الزاخرة!

أَمّا أمي (سلمى).. فيُخاطبها بلهجة المُحِب العاشق:

- يزعمون أنَّ لي حظّاً عظيماً، فإنْ كانوا صادقين؛ فأنتِ –يا سلمى- ذلك الحظّ العظيم، تزوَّجتُكِ فأدخلتِ السرور على قلبي.. والأمل الباسم إلى حياتي، و وجهكِ الصبوح المنير.. كان وجهاً للخير والبركة والسعة؛ فعمرتْ الدار.. وتضاعفتْ الأموال، وأصبحتُ مِن مَيَاسير التُجّار، وأعدكِ أنّي لن أبرح.. حتى تصيرين زوجةً للثريّ العظيم وسيد قومه المُبجَّل: العاص بن وائل السهمي!

تتبسَّم له بدلال.. وتهتف بامتنان:

- أكرمك الله –يا سيدي وحبيبي- كما أكرمتني؛ انتشلتَني من أدْران الرِّقّ والعبودية، وتزوَّجتني.. وجعلتني سيدة بيتك؛ فوالله.. لا أعدل بك رجلاً.. مهما علا قدره أو عظمتْ ثروته!

حبٌ عظيمٌ صادق.. عَزّ أنْ يوجد مثله في رَحْبات مكة؛ وكنتُ أنا ثمرة ذلك الحب، فرحتْ بي أمي فرحاً جَمّاً؛ فها هي ذي.. قد وهبتْ زوجها المحبوب ولداً ذكراً.. ليحمل اسمه ويكون سنده، ولتتوثَّق بي الوشيجة التي بينهما.

ولم تكن فرحة أبي أقل من فرحة أمي؛ بل سُرّ بمولدي سروراً عظيماً، ووعدها أنْ يضاعف الجهد والسعي لكي يَشِبّ ولده (عمرو).. فيجد أباه سيداً من سادات قريش.. وثريّاً من أكابر تُجَّارها.

بيد أنَّها قالت له.. في حزمٍ وعزم:

- هو ولدك.. وأنت أحق الناس به؛ فاجعله سندك وساعدك الذي تتَّكئ عليه، عَلِّمه كيف يكون تاجراً ماهراً.. وفارساً شجاعاً مثلك، اجعله ذخيرتك.. التي تدخرها لنوائب الدهر.

وِفْق ما ارتأته أمي –وعملاً بنصيحتها- تربَّيتُ على النشاط.. ودرء الكسل، نُشئتُ على الجِدّيَّة وحب العمل.. ونبذ العجز واليأس، وتعظيم العاص بن وائل.. ومعاونته في الصغيرة والكبيرة.

بيد أنّي كنتُ أصغر سناً وأضعف بدناً مِن أنْ أحمل سلاحاً.. لأخرج معه في حرب الفجار التي كانت بين قريش وأعدائها.

فقد ناشده خليله (عبد الله بن جدعان) –الذي كان أحد قادة قريش الثلاثة في تلك الحرب- أنْ يبرز معه للقتال بعشيرته: بني سهم ومَن حالفهم.

وجدها أبي (العاص) فرصةً سانحةً ليُؤكِّد سيادته لبني سهم، ويهيِّئ لنفسه مَوْطِئ قدم بين سادة قريش، ورغم خوفها على حياته.. شجَّعتْه أمي.

التحق –ومَن أطاعه مِن بني سهم- بجيش قريش، خاض المعارك –الجولة تلو الأخرى- مع صديق عمره (ابن جدعان)، وأبلى بلاءً حسناً.. وحَظِي عند قريش وزعمائها، وصار فارس بني سهم المغوار.. وسيدهم المُقدَّم!!

رمقه هشام بن المغيرة المخزومي بإعجاب؛ هو سيد بني مخزوم (وما أدراك مَن بنو مخزوم؟!)، وهو قائد فرسان قريش.. وأحد زعمائها المَتْبوعين، وهو وأخوته (بنو المغيرة المخزومي).. أهم أثرياء مكة المبجَّلين.

أثار العاصُ إعجاب سيد مخزوم.. حتى أنَّه زوَّجه ابنته (أم حرملة بنت هشام)؛ فأنجبتْ له أخي الأصغر (هشام).

ولا أُنكِر أنَّ هشام كان قُرَّة عين أبيه.. لشرف أمه ومكانة أهلها (**آل المغيرة المخزومي**)، أمَّا أنا.. فقد كنتُ عضده.. ويده التي يَذِبُّ بها عن عينه.

*****

دَرَجتُ في بيتٍ يُعظِّم المروءة والرصانة.. وينبذ الفُحْش والتَفَاهَة، ونُشِّئتُ على الأنفة والتعصُّب لآبائي وعشيرتي.

ثم اشتدّ صُلْبي.. وشببتُ عن الطوق، وكما غيري من فتيان قريش.. تعلَّمتُ ركوب الخيل.. والرماية والضرب بالسيف.. والفصاحة ونظم الشعر، وتعلَّمتُ السباحة.. أيضاً.

ولأنّي كنتُ من النابهين.. علَّمني أبي الكتابة والحساب.. كدأب تُجّار قريش مع أبنائهم الذين يؤهِّلونهم للعمل بالتجارة؛ ولقد نبغتُ في ذلك كله.

على ذلك الحال.. كانت السنون تمضي بي، وخلالها -**بالكَدِّ والمثابرة والكفاح**- نمتْ تجارة أبي، وأصبحتْ أباعيره تغدو –**مع القوافل**- بالعشرات؛ ثم تعود.. وقد جنتْ الأرباح بالمئات، وكذلك خلال تلك السنوات.. مات نديمه وصديق عمره (**عبد الله بن جدعان التيمي**)، وأيضاً.. مات صهره سيد مخزوم وزعيم قريش (**هشام بن المغيرة المخزومي**)، لا ريب.. حزن عليهما العاص حزناً حقيقياً؛ على أنَّه بهلاكهما.. ارتقى درجاتٍ في سيادة قريش، وازدادتْ سطوته في دار الندوة.

أخذتْ آماله تتحقَّق، وأوشك أنْ ينال مراده.. ويُدرك مبتغاه؛ وكلما كبرتْ ثروته.. كبرتْ طموحاته وتعاظمتْ أحلامه، وكبرتُ.. أنا أيضاً!!

عملاً بنصائح أمي.. دأبتُ على الارتحال بصحبته، والسفر مع قوافله –في سنٍ مبكرة- إلى بلاد الشام واليمن؛ فبلغتُ مبلغ الرجال قبل الأوان.
وكما أرشدتني أُمّ عمرو.. لم أنفك عن السير في ركابه، ولزمتُ غَرْزه.. حتى غدوتُ ساعده الأيمن، فاهتمّ بي.. وطفق يُعرِّفني بالتُجّار وأسياد الأسواق، ويُعلِّمني -من فنون التجارة وأسرارها- ما جعلني أمتاز عن كثيرٍ مِن الذين هم أسنّ مني وأقدم عملاً في التجارة.
تعلَّمتُ منه مهاراتٍ كثيرة، واكتسبتُ منه خبراتٍ عظيمة؛ وأنفس ما اكتسبتُه منه: الفطنة والفراسة وحضور البديهة.. وحسن الإصابة بالظنّ.
اتسعتْ تجارتناالرابحة.. وتواصل رواجها، وأضحى العاص من أثرياء قريش.. ورجالاتها المعدودين.. وتُجّارها المشهورين؛ بيد أنَّه كان –كصاحبه الهالك.. ابن جدعان- ينفق ولا يمسك.. ولا يدخر شيئاً لنوائب الدهر.

ثم برقتْ –في الأُفق- فُرْصَةٌ عظيمة؛ بيد أنَّها غير مأمونة العواقب.. وتتطلَّب مغامرةً محسوبة، والعاص بن وائل يهوَى المغامرات.. وأنا ولده وعلى شاكلته؛ فعزمنا على اقتناص تلك الفُرْصَة.. قبل غيرنا من تُجّار العرب.
وذلك أنّنا كنّا في رحلةٍ إلى اليمن! (وينبغي –أولاً- أنْ أخبركم: أنَّ اليمن قد تَغيَّرتْ بعد هلاك أبرهة وجيشه.. وانقلبتْ أحوالها رأساً على عقب؛ فقد لحقتْ اللعنة بخلفاء أبرهة.. وتم طردهم من أرض اليمن كلها، وحَلَّ محلهم ملوكٌ.. يوالون كسرى (ملك الفرس)، فتضرَّرتْ –بذلك- الصِّلات بين اليمن والحبشة.. رَدَحاً من الزمن، وتبعاً لليمن.. كان تُجّار الحجاز أمثالنا!!؟).
أَمّا الفُرْصَة التي أزمع أبي على اغتنامها.. فقد بزغتْ له مِن وراء حوارٍ -بين رجلين من ذوي الحيثيّات- دار تحت سمعه؛ فتلقَّفه بعقله وتدبَّر فيه، وانتهى

فِكْره إلى أنّها فُرْصَة لمكاسب جديدة لاحت في الأفق... تستوجب المغامرة برحلةٍ إلى أرض الحبشة.. بعد الجفوة التي استمرت معها سنين؛ لاستعادة الود والنشاط التجاري بين الحجاز ومَلِك الحبشة.

فقد رأى أبي –بفطنته وحسن قراءته للمستقبل- أنَّ النجاشي الجديد (واسمه: أبجر) يسعى لتمديد جسور الصِّلَة القديمة مع تجارة اليمن والحجاز.. وتجديدها؛ فقَدَّر العاص أنَّه لو مَدَّ يد التعاون إلى تُجَّار الحبشة، وتَوَّصل إلى بلاط النجاشي –قبل غيره من تُجَّار الحجاز- فسيكون له السبق.. والحظوة -عند النجاشي- التي تجعله يحتكر التجّارة بين الحجاز والحبشة.

قرَّر عبور البحر إلى الحبشة.. لاستبيان الحال، لكنَّه خشي عليّ من مخاطر الرحلة المجهولة العواقب؛ فخلَّفني في اليمن لأباشر تجارتنا التي جئنا من أجلها، وكلَّفني أنْ أتعلَّم –دون توانٍ- لغة الحبشة.. كلاماً وكتابةً.

غاب عني عدة أسابيع، ورغم قلقي عليه.. لم أُقصِّر في مباشرة تجارتنا حتى أثمرتْ أرباحاً طيبة، وكذا.. لم أتوان في تَعلُّم لغة الأحباش حتى تمكَّنتُ منها في أسابيع معدودات؛ حيث أنَّها قريبة الشبه بالعربية اليمنية.

ثم عاد إليَّ.. والبِشْر يتلألأ في وجهه، وتضاعف سروره.. إذ وجدني أحسنتُ إدارة تجارتنا حتى حقَّقتُ مكاسب مرضية، وتعاظم تفاؤله حينما أثبتُّ له تمكُّني من لغة الحبشة.

غير أنَّه –طوال رحلة إيابنا إلى مكة- لم ينفك عن التأمُّل والتفكير؛ أُطيل الكلام معه، ويطول سكوته.. تشاغلاً عني بأفكاره!!؟

لم نكد نَحُطّ رحالنا –في مكة- ونستريح.. حتى أمرني بالاستعداد لرحلةٍ جديدة إلى اليمن، جمع أموالاً كثيرة.. ثم خلَّفني بأرض اليمن وعَبَر إلى الحبشة مرة ثانية.. وثالثة، ثم تكرَّرتْ زياراته لها عدة مرات؛ كان ينفق فيها أموالاً –ليستْ بالقليلة-، ثم يعود خاوي الوفاض.. دونما يُخبرني بما يفعل!!؟

حتى كاشفني –ذات مرة- بما يدور في رأسه: ليس الأمر هيناً كما كان يعتقد!؟؟ الوصول إلى بلاط النجاشي.. صعب المنال، وتمهيد الطريق إليه يستوجب توطيد الصلة بحاشيته والبطارقة المقرَّبين منه.. بهدايا ورشاوَى يلزمها مال كثير.

وإذا تَوَصَّلنا إلى النجاشي؛ فينبغي أنْ تكون الصفقات التي نعرضها عليه.. صفقاتٍ عظيمة كعِظم قدره، ولا مفرّ من التضحية ببعض المكاسب لإغرائه بالموافقة على فتح أسواق بلاده لنا.. ولو في البداية!!

أيقن أبي أنَّه لن يقدر على تحقيق ما يطمح إليه –في الحبشة- دون شريكٍ ثَرِيٍّ من عظماء مكة: إمّا سيد عبد مناف (حرب بن أمية)، وإمّا سيد مخزوم (الوليد بن المغيرة)؛ على أنَّه فضَّل التعاون مع الوليد بن المغيرة المخزومي؛ فبنو مخزوم حلفاؤنا.. وآل المغيرة أصهاره.

رحَّب سيد مخزوم بخطة أبي في الانفتاح على أسواق الحبشة.. من جديد، وسال لعابه طمعاً.. حينما أخبره العاص بما شاهده في بلاد الحبشة من خيرات وسعة في الأسواق، وبشَّره بأنَّ وراءها مكاسب واسعة ستكون لهما –خاصة- إنْ تكاتفا سَوِياً، بيد أنَّ سيد مخزوم رفض الشراكة معه؛ وإنَّما

عرض عليه أنْ يمدَّه بالأموال التي يحتاج.. نظير ربا باهظ يتوافقا عليه؛ وبالتالي.. فسيغنم هو المكاسب، ولن يتحمَّل معنا أي خسائر.

أجابه أبي لِما أراد.. وعاهده على ذلك، وحينما سألتُه: "لِمَ -يا أبتي- نقبل عرض سيد مخزوم؟!! لماذا يربح إذا ربحنا.. ولا يتحمَّل معنا الخسارة إنْ خسرنا؟!!"، أجابني باقتضاب: "يا ولدي! نحتاج أمواله، ولا أحب أنْ يطَّلع على حقيقة ما أُبرمه –في الحبشة- من صفقات، ولا أريده أنْ يتَوَصَّل إلى الذين عرفتُهم في بلاط النجاشي!".

كان العاص رجلٌ أريبٌ داهية، يعلم أنَّ ثَريّ بني المغيرة المخزومي.. جمّاع للأموال.. ولا يشبع من تنمية الثروات، ويحب أنْ يكون –دائماً- الأقوى والأغنى، وقدَّر العاص أنَّ الوليد سيسايره حتى يتوصَّل به إلى بلاط النجاشي.. ليقفز على أكتافه إلى المَلِك؛ ثم يتخلَّى عنه!!؟

لذا.. فقد اشترط أبي عليه –نظير الربا الذي سيربحه من ورائنا- شروطاً يضمن بها عدم وقوع ما يخشاه، واضطر الوليد إلى قبول كافّة شروط العاص.. طمعاً في الفُرْصَة المواتية.. وفي الفوز بالمكاسب الوفيرة!!

بمشقةٍ وجهد وكُلفاتٍ باهظة.. تمكَّن العاص من الولوج إلى بلاط النجاشي.. والتَوَدُّد إلى حاشيته.. وبطانته المُقرَّبين، احتفوا به.. وبهداياه الثمينة، ووعدوه بالتوَسُّط له لدى المَلِك.. كيما يوافق على فتح أسواق الحبشة لتُجّار الحجاز؛ على أنْ يكون العاص سفيرهم الوحيد لدى النجاشي.

وَفّوا بوعودهم.. وعُقدتْ الصفقةُ الأولى، ثم الثانية.. والثالثة والرابعة، ربح الوليد بن المغيرة ربحاً وفيراً من ربا تلك الصفقات، أَمّا العاص.. فقد ضحى

بمعظم أرباحه كهدايا ورشاوَى.. ليزداد تقرُّباً من بطانة الملك؛ ساعياً إلى لقاء النجاشي وجهاً لوجه.. ليحظى عنده؛ تساءلتُ.. مُندهِشاً:

- يا أبتي! أرى أنَّ سيد مخزوم.. وحاشية النجاشي.. قد حصَّلوا مكاسبهم على حسابنا؟؟!
- لا تتعجَّل قطف الثمار –يا عمرو- قبل أوانها؛ فإنّي أغرس لك في بلاط النجاشي غرساً، وأتعهَّده.. كما يتعهَّد الرجل فسيلته حتى تصير نخلةً سامقة تناطح السحاب!
- وما ذاك.. يا أبتي؟؟!
- اصبر.. ياولدي!! فإنَّ الرجل يزرع النخلة ويكرمها بضع سنين دون أنْ ينتظر منها الثمر؛ ثم تأتيه منها الثمار اليانعة أعواماً طويلة! وإنّي أصبحتُ القرشي –**بل.. العربي**- الوحيد الذي يتفرَّد بحضور مجلس الملك.. ويُنادمه، وذلك شرفٌ عظيمٌ.. يحمل في طياته مكاسباً جَمَّة.. لن تتخيَّل كثرتها!!
- أرجو ذلك.. يا أبتي! وإلّا.. سنكون كالذي يَكُدّ ويتعب.. ليربح غيره؛ أعني سيد مخزوم.. وحاشية الملك!!؟
- تمهَّل.. يا عمرو!! فإنّ أباك يحسب لكل أمرٍ حسابه، وقريباً.. سنستغني عن أموال ابن المغيرة.. وعن وساطة الحاشية!

تمهَّلتُ.. وصدق تقدير العاص، أدناه النجاشي منه.. وقَدَّمه على مَن سِواه من العرب، بيد أنَّ أبي لم يَقْنَع بذلك فقط، وإنَّما علم أنَّ وَليَّ عهد النجاشي (**وليس له ولدٌ ذكرٌ غيره**) غلامٌ في سنٍ قريبٍ من عمري؛ فالتمس مِن

ثقاته -الذين في بطانة المَلِك- أنْ يُحدِّثوه عني وعن نبوغي وكفاءتي، وأنْ يُوحوا إليه بأنْ يَضُمّني إلى جلساء ولده هذا!!

ثم جاءني أبي.. مُبشِّراً، وألفيتُ نفسي على موعد لقاءٍ مع وَلِيّ عهد النجاشي، وانطلقتُ مع والدي إلى أرض الحبشة.

****

-الفصل الثاني-

إلى بلاد النجاشي.. سعينا؛ عابرين البحر.. إلى أرض الحبشة، بلادٌ أشاهدها بعيني لأول مرة؛ كنتُ أظنُّها صحراء جدباء.. كأرض الحجاز؛ لكنَّها لم تكن كذلك، وكذا.. لم تكن كمثل أرض اليمن!؟

إنَّما كانت أرضاً مُختلفة، أرضٌ سوداء (قاتمة السواد).. لونها كلون بَشَرة أهلها؛ لكنَّها جنةٌ فيحاء، تتربَّع فوق هضبةٍ مُحصَّنة بجبالٍ شاهقة.. وأوديةٍ سحيقة، تحيط بها.. فتمنعها مِن كيد العِدَى، لا يصل إليها قاصدها إلا من خلال مسالك وعرة وصحار قاحلة وأجواء مضطربة.. مما زاد سطوتها ومناعتها.

تجوَّلتُ –مع أبي- في بعض تلك البلاد.. قبل أنْ نقصد قصر النجاشي؛ فشاهدتُ جنات الفواكه.. ومزارع القمح والكروم وغيرها، ظننتُ أنّ جميع أهل هذه البلاد.. فلاحون لا يجيدون حرفةً غير الزراعة.. لكثرة الزراعات التي رأيتُ واتساع أراضيها المزروعة.

وكذا.. رأيتُ سدوداً ضخمة جعلوها لحفظ ماء المطر، وأوصلوها بمزارعهم عن طريق ممرات مائية محفورة في الأرض.

ولاحظتُ –أيضاً- أنَّ أهل هذه البلاد.. يستخدمون –في حرث أراضيهم- محاريث يجرها الثيران؛ وذلك شيءٌ.. عجبتُ منه!!

ثم دلفنا إلى (مدينة أكسوم)!! وما أكسوم؟؟!

هي قصبة بلاد الحبشة.. وعاصمة النجاشي التي فيها قصره العظيم، وكذا.. فيها كنيستهم الكبرى التي يُعظِّمها أهل هذه البلاد ويحجُّون إليها.
مدينةٌ طيبة الأجواء، تقع في حضن جبلٍ شاهق، يُحيطها سورٌ ضخم.. يتخلَّله بواباتٌ واسعة.. تفتح لدخول المدينة نهاراً وتُغلَّق ليلاً.
عظيمة العمران؛ مبانيها ذات طوابق متعدِّدة، ومرتفعة عن الأرض ارتفاعاً كبيراً.. حتى أنَّها يُصعَد إليها بالدرج.

ثم أُذِن لي أنْ ألقى ابن النجاشي، ارتديتُ أفخر ثيابي.. وتزيَّنتُ بأفضل زينة، ثم أُدخلتُ إليه، كان جالساً بين بطانته وندمائه، أول ما وقع عليه بصري.. رأيتُه يخاطب جلساءه -مُشيراً إليّ- باستهزاء:

- هذا.. مِن أولئك العرب الذين يخطفون نساءنا وأبناءنا.. ليبيعوهم عبيداً في الأسواق!!

استأتُ من ازدرائه لي ولقومي، ولم أنتظر أنْ يُترجم لي الترجمان –الذي جعلوه بيننا- مقولته؛ بل.. اندفعتُ أَذِبُّ عن نفسي.. هاتفاً بلغتهم الحبشية:

- ليس كل العرب كما تقول.. يا مولاي! وأنا عربي قرشي.. بلدي مكة، قومي أجوار بيت الله العتيق.. الذي يحميه الرب بنفسه، ولسنا نخطف الآمنين، ولا نسرق الأطفال من أهليهم!!

لا شك.. تلك بدايةٌ لا تُرضي العاص بن وائل.. الذي أوصاني بتوطيد صلتي بوَلِيّ عهد النجاشي، وكان تعارفاً مُحبطاً بالنسبة لي حيث أحب ألا أقصر في وصية أبي (بأنْ أخسر صداقة هذا الغلام من أول لقاء) ؛ غير أنّي كنتُ مضطراً أنْ أدفع عن سمعة قومي وشرفهم!!

سكتُّ.. ولامحته -بطرف عيني- لأستكشف رد فعله على إجابتي؛ فلاحظتُ الدهشة تلمع في عينيه، ورأيتُه يَرنُو إليّ بإمعان نظر، وما تحاشيتُ النظر إليه؛ فتلاقتْ عينانا، وحدستُ أنّه تباغت بمعرفتي للغتهم؛ وصدق حدسي.. إذ سألني مستغرباً:

- هل تتكلَّم بلساننا؟!!

ابتسمتُ بارتياح.. وأجبتُه بلهجةٍ متواضعة:

- نعم.. يا مولاي! وأقرأ وأكتب.. أيضاً!

- "سأختبرك! وإنْ كنتَ كاذباً.. سقطتَ من نظري!!؟": هتف مُنذِراً؛ فجاوبته بثقةٍ.. وإصرارٍ لطيف:

- أنا طوّع بنانك.. يا سيدي!

جاء بكتابٍ، ثم ناولنيه.. وقال آمراً: "اقرأ!!".

فضضتُ الكتاب **(ولا غرو.. كان بلغة الحبشة)**؛ طالعتُه بعيني أولاً، ثم انطلقتُ أقرأه عليه دونما تلعثم.. حتى أمرني -في صرامة- بقطع القراءة، ثم استجلب قرطاساً وقلماً.. وقال: "اكتب.. ما سأمليه عليك!".

أخذتُ القرطاس.. وأمسكتُ القلم، وطفق يحدِّثني.. وأكتب، ثم سكت.. وتناول مني القرطاس، وجعل يطالع ما كتبتُه.

انفرجتْ أساريره، وشعرتُ –آنذاك- بالارتياح، ثم التفت إليّ سائلاً.. بنبرةٍ أقرب وداً:

- أرى.. أنّك.. صادقاً! تجيد القراءة والكتابة بلغتنا.. وخطك حسن، لا بأس بك! ما اسمك.. أيها العربي؟؟

قلتُ بأدبٍ: "عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي.. يا مولاي!".

أجابني بابتسامةٍ لطيفة: "مرحباً بك في مجلس ندمائي.. يا عمرو!!".

كان لقاءً مُحبِطاً.. في بدايته، غير أنَّ ختامه كان مُشجِّعاً على تقوية الصلة بيننا؛ فلم أُغادر مجلسه –في تلك المرة- إلا عن موعدةٍ بلقاءٍ جديد.
وتعدَّدتْ اللقاءات بيننا طوال مدة مُكْثي –مع أبي- في الحبشة، دائماً كان يلقاني بوجهٍ باشٍّ.. مُبتسمٍ؛ عرَّفني أنَّ اسمه: (أصحمة بن أبجر).. وكنتُ أناديه.. أحياناً: "مولاي.. الأمير الأصحم!".
ولستُ أُبالغ إذ أقول أنَّه تَعلَّق بي سريعاً؛ وأنَّ قلبي أحبه بنفس السرعة، أمسيتُ أُجالسه ساعات طويلة -في الليل والنهار- حتى أنّي انشغلتُ بمنادمته عن معاونة أبي في تجارته وأعماله؛ (وكم كان العاص سعيداً بهذا!!).
وحينما خرج للصيد –في الغابات.. لأول مرة في حياته- أصرّ على اصطحابي معه، وتزايد إعجابه بي لِما أبديتُه من فروسيةٍ ومهارة، ولم يأنف أنْ يصارحني بذلك.. فهو سمحٌ لين؛ جاوبته باعتزازٍ.. غلَّفتُه بلهجةٍ متواضعة:

- يا مولاي.. أصحمة! أنا مِن قريش.. وكل قومي هكذا!!
- شوَّقتني للتعرُّف على قومك هؤلاء.. يا عمرو!؟ لكن.. لو أردتُ التعرُّف بقومٍ على حقيقتهم؛ فعليّ أنْ أعرف لغتهم.. أولاً!؟؟

صمت.. ملياً، ثم التفت إليَّ.. هاتفاً في حماسٍ وإصرار:

- علِّمني لغة قومك.. يا عمرو!!
- أعلم أنَّ سيدي أصحمة شديد الفطانة وسريع التعلُّم؛ لكن.. لغة قريش يحتاج تعلُّمها إلى وقتٍ، ومولاي يعلم أنّي ينبغي أنْ أرحل مع قافلة والدي خلال أيامٍ معدودة!!؟

- إذا وافقتَ.. فسألتمس من والدي (النجاشي) أنْ يأمر أباك بأنْ يتركك معي حتى قدومه في رحلته التالية!!

أمسكتُ عن إجابة مطلبه حتى أشاور أبي، بيد أنَّ العاص رحَّب بالأمر.. وخلَّفني في قصر النجاشي؛ فعَلَّمتُ أصحمةَ لغةَ قريش، وتَوَطَّدتْ صلتي به.. حتى صرتُ صديقه الأقرب إلى قلبه، وتضاعفتْ محبته في قلبي.

لا أُنكر أنَّه كان غلاماً ذكياً نابهاً، وكان يحب التعلُّم.. ويُكثر من مطالعة الكتب، ويُحسن الاستماع إلى أهل العلم والأخبار، ثم عرفتُ أنَّه يتعلَّم لغة القبط (أهل مصر) وكذا لغة الروم.. حتى أصبح يقرأ ويكتب بهما، وأرشدني إلى تَعلُّمهما؛ فتماشيتُ معه.. وعلمتُ منهما قدراً لا بأس به.

كثيراً ما كان يتركني.. ليحضر مجالس أبيه (النجاشي أبجر) ليتعلَّم منه كيف يكون مَلِكاً.. ويتعرَّف على نظم المُلْك وإدارة الدولة، ثم يرجع إليّ.. ليُحدِّثني ببعضٍ مما تعلَّمه في مجلس المُلْك، ويُكلِّمني عن أحلامه التي سيسعى لتحقيقها عندما يصير ملكاً بعد أبيه: **(كان يحلم بأنْ تصبح الحبشة أرض الخيروالنماء.. فلا يجوع فيها إنسانٌ ولا حيوان، وأنْ ينشر فيها العدل والرحمة.. فلا يُظلم فيها إنسان!)**.

ذات أمسية.. سألني:

- كنتَ حدَّثتني –يا عمرو- أنَّ الرب هو الذي يحمي بلدكم.. مكة؛ فأخبرني: ما دليلك على ذلك؟؟!
- أجل.. يا مولاي! قد اختار الإله الأعظم مكة لتكون بلده الحرام؛ فحرَّم –فيها- القتال وسَفْك الدماء، ثم أرشد إبراهيم –وولده اسماعيل- إلى بناء بيته العتيق (الكعبة) فيها.. ليحجّ إليه الناس من

كل حدبٍ وصوب، وأسكن ذريته -**الذين هم قريش**- في جوار البيت.. ليكونوا حجّابه.. ورفَّاد حجيجه.

- هذا كلامٌ مُرسل؛ فما دليلكم عليه؟!!
- الدليل: أنَّ العرب –**من قديم الزمان**- يُعظِّمون الكعبة ويحجّون إليها كل عام، وينصبون أصنامهم حولها، ويتَوَرَّعون عن انتهاك الحرمات فيها، وإنّي شاهدتُ كنيستكم العظمى.. ورأيتُ أنَّ تقديس العرب للكعبة أشدّ من تقديسكم لكنيستكم!
- يا عمرو! إنَّ ديننا خيرٌ من دينكم!!
- "أيها الأمير! لو كان دين أبرهة الأشرم خيرٌ من دين قريش؛ فما بال الطير الأبابيل؟!!": أجبتُه بحَميَّة.. أنفةً لدين قومي.
- وما الطير الأبابيل؟!!
- يا مولاي! منذ أربعين سنة.. إبان كان أبرهة الأشرم مَلِكاً على اليمن –**مِن قِبَل النجاشي.. آنذاك**- خرج بجيشٍ كثيف وفيلٍ ضخم من أرض اليمن إلى مكة.. يريد هدم الكعبة ليصرف العرب عنها.. وليحجُّوا إلى كنيسته التي بناها في صنعاء؛ فأرسل الله عليه طيراً أبابيل ترميه وجيشه بحجارةٍ كأنَّها الصواعق.. حتى هلك جيشه! أليس ذلك دليلٌ على أنَّ دين قريش خيرٌ من دين أبرهة؟؟!
- هل رأيتَ ذلك بعينك.. يا عمرو؟!!
- أَنَّى أراه.. وقد وُلِدتُ بعدها بأعوام؟!! لكن.. رآه أبي –**بعينه**- وكثيرٌ من قومي، وما زال (**أنيس**) سائس ذاك الفيل يعيش شريداً في مكة؛ نراه رجلاً بائساً أعمى.. يطوف بجنبات الدُور يتكفَّف الناس!!

وَجِم أصحمة.. وصرف بصره عني، أيقنتُ أنّي حاججتُه وغلبتُه بحجتي؛ لكنّي أحزنتُه.. وما أردتُ ذلك، غير أنَّ أنفتي هي التي دفعتني لهذا.. حَميَّةً لقومي، أحببتُ أنْ أُطيّب خاطره؛ فتنحنحتُ.. ثم استطردتُ:

- أيها الأمير! إنَّ الأديان كأغراس الشجر؛ فما يصلح زراعته في الحبشة.. قد لا تستقيم زراعته في أرض العرب، وهذا ما لم يفهمه أبرهة!
- ..... . سكت.. فأردفتُ:
- فذرنا.. ندع دين الحبشة لأهل الحبشة، ودين قريش.. لجزيرة العرب!

هَزَّ رأسه.. كأنَّما يوافقني الرأي، ثم فَضَّ المجلس.. وصرفني.

*****

انصرم عامٌ –**كان من أسعد أعوام حياتي**- ثم عاد أبي(**العاص**) إلى الحبشة، وقد ارتقتْ مكانته عند النجاشي.. لمكانتي عند ولده، وأحرز أبي –**في رحلته تلك**- مكاسب عالية.. عوَّضته عن كثيرٍ مما ضحى به آنفاً، تنفَّس الصعداء.. وهمس يخاطبني:

- ألم أُخبرك.. يا ولدي؟! ها هي ذي تجارة الحبشة قد آتت أُكُلها، وما سيأتي سيكون أعظم وأكثر!

حينما سألني عن رأيي في أصحمة.. قلتُ دونما أُخفي إعجابي به:

- هذا الفتى خليقٌ بأنْ يكون مَلِكاً عظيماً!!
- إذاً.. احرص –**يا عمرو**- أنْ تكون صديقاً لائقاً بهذا المَلِك العظيم!!

رجعتُ إلى مكة.. على موعدةٍ بزيارة أصحمة -في قصر النجاشي- خلال رحلتي القادمة، والحق أنَّ حنيني إلى مكة.. كان شديداً؛ وشوقي لأمي.. كان أشدّ.

انقضتْ أيامٌ.. ولَمَّا تهدأ لهفتي على مراتع صباي التي غلبني الشوق إليها، ثم أتتني أمي –ذات يومٍ- لتهتف.. باستبشار وسعادة:

- مرحى.. مرحى.. يا عمرو! قد أعلمني أبوك أنَّك أصبحتَ تدخل على ملوك الحبشة وتُجالسهم وتُنادمهم!

اغتبطتُ بمقالتها.. وجاوبتُها مُتصنِّع التواضع:

- يا أماه! إنَّ والدي يُبالغ؛ وما هو سِوَى الأمير الصغير.. ابن الملك!!

أجابتْ بلهجةٍ واثقة:

- أليس الصغير.. يكبر؟! ألن يصير الأمير –غداً- مَلِكاً؟! وتالله.. إنّي أراك أليق الناس بالإمارة والمُلْك.. يا ولدي!!

أجبتُها بابتسامةٍ صامتةٍ؛ فاستطردتْ لتخبرني بما جاءتني لأجله:

- وإنّي أرى أنَّه مِن غير اللائق أنْ يظلّ عمرو بن العاص -سفير قريش في بلاط النجاشي.. ونديمه- أعزباً؛ ينبغي أنْ تتزوَّج.. يا بني!

أجبتُها على استحياءٍ.. وباقتضابٍ:

- ألا ترين –يا أم عمرو- أنَّي أحدث سناً مِن أنْ تحدِّثيني في أمر الزواج؟؟!

- بل أراك قد بلغتَ مبلغ الرجال، وأريد أنْ أسعد بذريتك؛ ولقد اختار أبوك عروسك: ريطة بنت منبه!

ريطة!!؟ إنَّها –عند أبي وأمي-.. ابنة منبه بن الحجّاج السهمي؛ أحد وجهاء بني سهم وأسيادهم الأثرياء.

أَمّا عندي.. فهي طيفٌ رقيق.. وحلمٌ جميل طالما حلمتُ به.. وتمنَّيتُه.

تزوَّجتُ (ريطة)؛ فكان عُرْسنا حديث بني سهم.. الذي يتندَّرون به ويتباهون به بين الناس.. لفترةٍ من الزمن؛ فلقد أنفق أبي –في هذا الزواج- نفقةً عظيمة، ربما يكون.. قد أطعم أهل مكة كلهم.
وما أسرع أنْ تفاقم حب ريطة في صدري.. حتى تَملَّك شغافَ قلبي، وما برحتُ أحبها كحب أبي القديم لأمي.. بل أشدّ؛ ولقد بادلتني حباً بحبٍ.. ولهفةً بلهفة.

وفيما أنا على تلك الحال من العشق والسعادة، وبينما نتجهَّز لرحلةٍ جديدة إلى الحبشة.. إذ دهمنا نبأ موت النجاشي (أبجر).. والد أصحمة.
هرعتُ مع أبي إلى الحبشة، وهناك عرفنا أنَّ: النجاشي (أبجر) أوصى بمُلْك الحبشة لأخيه.. حتى يبلغ ولده (أصحمة) رشده؛ حيث أنَّه لم يزل غلاماً، على أنْ يردّ عمه إليه مُلْك أبيه.. بعدما يبلغ أشده.
بعد مدة من بلوغنا أكسوم.. أُذِن لنا بالمثول بين يدي النجاشي الجديد كي نعزّيه في أخيه.. ونهنّئه بالمُلْك، وكنتُ –قبلها- قد دلفتُ إلى (أصحمة).. الأمير اليتيم لأُعزّيه في أبيه.. وأواسيه.
لم يطل لقاؤنا بالنجاشي الجديد، ولم يهتم لنا.. كما كان يهتم أخوه!!
ولقد تفرَّستُ فيه خِلسة –أثناء وقوفنا بين يديه- فقدَّرتُ أنَّه رجلٌ ذو كِبرٍ وصلف؛ أمّا العاص.. فقد قدَّر ما هو أعظم مِن هذا!؟
قال لي –حين خرجنا من عند ذاك المَلِك-:

- هَلُمَّ بنا –يا عمرو- نرحل مِن هنا!!

استمهلتُه حتى أرجع إلى أصحمة؛ فأمكث معه.. أواسيه قبل أنْ نغادر، لكنَّه همس بصوتٍ مُتوجِّسٍ:

- كلا.. يا ولدي! لم يعد مقامنا –في هذه البلاد- آمناً.. بعد اليوم!!

تَساءلتُ باضطراب:

- لماذا.. يا أبتِ؟!!

أجابني.. بصوتٍ يشوبه الجزع:

- إنّي أرى –يا عمرو- أنَّ ذاك الملك الجديد ليس كأخيه الهالك؛ إنَّه غادرٌ.. وأخشى على أنفسنا مِن غدره لِما لنا من سابق صلةٍ بأخيه!!؟

تَعجَّبتُ.. واحترتُ؛ غير أنَّ أبي لم يدع لي فُسْحَةً لأسأل عن أصحمة.. أو حتى أُفكِّر فيما سيؤول إليه حاله لو غدر به عمه!!

لم يمهلني العاص حتى أتدبَّر هذه أو تلك؛ إنَّما هرعنا –في الحال- إلى أمتعتنا؛ فحملناها.. و رحلنا -عن الحبشة- مُتعجِّلين.

ثم صدقتْ نُبُوءة أبي؛ فبعدما استقر بنا المقام -في مكة- بأمدٍ يسير.. جاءتنا الأنباء من بلاد الحبشة.. تؤكِّد أنَّ المَلِك الخائن خَتَر ابن أخيه (أصحمة)؛ فباعه إلى بعض تُجّار النِّخاسَة كأنَّه عبدٌ رقيق.. طامعاً في المُلْك ومُبدِّلاً لوصية أخيه المَلِك الراحل، بل.. و نَكَّل بكل مَن اعترض على فعلته.. أو راجعه في شأن البائس أصحمة.

استأتُ من ذلك المَلِك الغدور، و تَألَّمتُ لِمَا آل إليه حال صديقي الأمير الضعيف؛ لكنْ.. لم يكن في وُسْعي أنْ أفعل شيئاً ينصره أو يمنعه.

*****

آيسنا من العودة إلى الحبشة مرة أخرى، وتحسَّرتُ على حال أصحمة.. وحزنتُ لأجله حزناً شديداً، وتحسَّر العاص على تجارة الحبشة وأسواقها التي أيقن بخسارته إياها.. إلى الأبد.

ومما ضاعف حسرته: ربا الوليد بن المغيرة المخزومي الفاحش وديونه التي يُطالبنا بسدادها كاملة.. دونما مراعاة لخسائرنا الناجمة عن موت النجاشي (أبجر).. وتغيير خَلَفه لسياسته.

اضطر العاص للرضوخ إلى مطالبات الوليد؛ فهو لا يقوى على معاداة سيد مخزوم، وتحتَّم علينا المبادرة لاستكشاف أسواقٍ جديدة.. عسى أنْ نعوِّض بها خسارتنا لأسواق الحبشة، فكَّرتُ في الارتحال إلى مصر، بيد أنَّ أبي حبَّذ الشخوص –قبلُ- إلى الشام!

سافرنا –مع القوافل- إلى بلاد الشام، طفنا بها.. وتجوَّلنا في أسواقها؛ وأصبنا مكاسب لا بأس بها، ثم ارتحلنا إلى اليمن.. وكانت كعهدنا السابق بها، لكن.. أبداً لم تكن مكاسب رحلات الشام واليمن.. كالتي كنّا نرجوها من رحلة الحبشة.. ولا حتى كحصيد زيارةٍ إلى بلاط النجاشي (أبجر).. والد أصحمة.

بيد أنَّنا كنَّا مجبرين على الاستمرار في تلك الرحلات؛ فليس لنا خيارٌ آخر، وربا سيد مخزوم الفاحش.. حمله ثقيلٌ فوق كواهلنا.

تحمَّلنا.. و توالتْ رحلاتنا الواحدة تلو الأخرى، وبعد كل رحلة.. كنتُ أرجع واللهفة والأشواق يحملونني حملاً إلى زوجتي الحبيبة (ريطة)، وكنتُ أجدها أعظم صبابةً مني.. وأشدّ لهفةً عليّ!

رغم ضَعْف أرباحنا.. كنتُ حريصاً على أنْ أعود إليها –وإلى أمي- بالهدايا النفيسة التي اعتادا مني عليها.

دأبتْ ريطة على أنْ تسألني عن أحوال البلاد التي أزورها.. وعن العجائب التي أراها في الأسواق التي أرتادها.

والحق –الذي أعترف به- أنّي كلما حكيتُ لها حكايةً أو قصصتُ عليها خبراً من أخبار تلك البلاد.. أرجع فأُحدِّثها عن الحبشة، وعن النجاشي (أبجر).. وبلاطه، وعن أصحمة.. وصحبتي له.

لا أَملُّ من تكرار الحديث عنه.. وعن أَسَفي عليه، ولم تكن هي تضجر من حديثي عنه.. أو عن حرقتي تغيُّظاً من عمه الخائن، ولا عن رغبتي في البحث عن أصحمة.. حتى أنجده –إنْ استطعتُ- مما هو فيه من كرب.

وكلما عاودتُ الحديث عنه.. وعمّا كان فيه من عزٍّ و رغد عيش، وكلما أعدتُ على مسامعها نفس الحكايات.. كانت تجيبني:

- تالله -يا عمرو- لقد أحببتُ هذا الأمير الحبشي.. لحبك له، ولقد حزنتُ لأجل حزنك عليه؛ لكن.. ماذا يمكنك أنْ تفعل.. وأنت حتى لا تعرف: إلى مَن باعه الخونةُ.. ولا في أي أرضٍ استقر به الحال؟!!

كنتُ أهزّ رأسي موافقاً لرأيها، ثم أَكُفُّ –إلى حين- عن حديث أصحمة؛ ولا يَكُفُّ عقلي عن التفكير فيه.. ولا قلبي عن الحزن عليه.

*****

ذات مرة.. وبينما نحن قافلون من بلاد الشام؛ إذ نزلنا –قريباً من بدر- على مضارب بني ضمرة (وهم حيٌّ من أحياء قبيلة كنانة.. أُمّ قريش)، رحَّبوا بأبي ترحيباً جماً.. وأكرموا ضيافتنا، تعرَّفتُ –من بينهم- على فتى من فتيانهم.. اسمه: عمرو بن أمية الضمري (تفرَّستُ فيه.. فقلتُ في نفسي: هذا الفتى حَرِيٌّ

بأنْ يكون فارس بني ضمرة المُقدَّم.. وفاتكاً من فُتَّاك العرب، وقد أثبت -ببطولاته.. في مستقبل الأيام- صدق فراستي فيه!).

بيد أنَّ المفاجأة التي أذهلتني –**بل صعقتني**- كانت حينما أمسينا.. فاستجلب مُضيِّفنا غَبُوقاً لنتعشَّى؛ فجاء أحد عبيده.. يحمل إناء حليب.

أبصرتُه –**في غيراكتراث**- يُقبِل علينا من بعيد؛ أحسستُ أنّي أعرفه، دقَّقتُ النظر وحملقتُ فيه.. فعرفتُه؛ دَهِشتُ.. وأخذتني المفاجأة كل مأخذ، قمتُ إليه.. وكدتُ أصرخ: "**أصحمة**.. أ هذا أنت؟!!".

لولا أنَّه أسكتني بنظرةٍ خَفِيَّةٍ مِن طرف عينه؛ ففهمتُ أنَّه يرغب في كتمان خبره عن الحاضرين، تأمَّلتُه.. فإذا البؤس قد بَدَّل نضارته شُحوباً وذُبولاً، يمشي عارياً إلا من إزارٍ –**خشن.. رَثّ**- يستر عورته، لَوَّحتْ الشمس بشرته السمراء الناصعة، وأعجف الشقاء والشظف جسده.

بخضوع العبيد واحتشامهم.. وضع الحِلاب بين أيدينا، ثم حَيّا سيده الضمري.. باحترامٍ، أذن له بالانصراف.. فانسحب –**من أمامنا**- في امتثال.

جَنَّ الليل.. وبِتنا في خيمة الضيافة، اضطجع أبي في فراشه.. وغيَّبه النوم؛ حالما بقيتُ ساهداً مُضطرباً، ثم انسللتُ.. خارجاً من الخيمة.

الليلة.. مقمرةٌ؛ تَطلَّعتُ إلى السماء الصافية.. والبدر الذي ينثر سناه فوق الرمال، تنشَّقتُ نسائم الليل النَّدِيّة، ثم تسلَّلتُ إلى مَعاطِن الإبل -**حيث علمتُ أنَّها مبيت عبيدهم**- باحثاً عنه.

تحت ضوء القمر.. لمحتُ –**من بعيد**- طيف إنسان يتَّكئ عند شجرة أراك؛ خمَّنتُ أنَّه هو.. واتَّجهتُ إليه، نظرتُ.. فكان هو!!

اقتربتُ.. في هدوء، شهدتُه مُسنِداً رأسه إلى جذع الشجرة.. مُمدِّداً رِجْليه.. شارد الذهن، لاحظتُ عَبراتٍ صامتة تنساح على وجنتيه؛ فاستفزَّتْ الدمع في مُقْلَتيّ، لم ينتبه إليَّ.. حتى تنحنحتُ؛ فاعتدل في جلسته.. بشيءٍ من الاضطراب، لكنَّه.. سرعان ما سكن حين عرفني.

عجزتُ عن كبح دموعي، وانكببتُ على قدمه.. أريد تقبيلها؛ فانتزعها مني، فأمسكتُ رأسه.. وقبَّلتُها، همستُ –والأسى.. يُقطِّع نياط قلبي-.. والنشيج يُقطِّع كلماتي:

- مولاي.. الأمير الأصحم! فداك أبي وأمي!! ليتني.. أكون مكانك، وتكون أنت آمناً عزيزاً في قصر أبيك!!!
- "لا تجزع –يا عمرو- فقد فات أوان ذلك!!": قالها بمرارةٍ.. وانكسار.

ثم.. سكت، وشخص بصره.. ناظراً إلى لا شيء، تساءلتُ حائراً مُضطرباً:

- ألا يعلم أولئك الناس.. مَن أنت؟!! ألا يعرفون قَدْرك؟؟!
- أنا عبدٌ حبشيٌ.. أحمق اشتروه من بعض النَّخَّاسين!!
- "ألَّا يعلمون أنَّك مَلِك الحبشة؟!!": تساءلتُ مُتعجِّباً.. باستياء.
- وهل.. أنا.. كذلك.. حقاً؟!!
- ..... !!
- قد مات أبي، وخَتَر قومي بعهدي؛ باعني عمي بثمنٍ بخس! انتهى أمري، وها أنا ذا.. أصبحتُ عبداً حقيراً.. يرعى الغنم في بادية بني ضمرة!!
- سيدي أصحمة! لا تقل هذا!! أنت مَلِكٌ أصيل.. ابن مَلِكٍ عظيم!

ضرب صفحاً عن مقالتي.. واسترسل هامساً في شجنٍ وانكسار:

- أ تدري ما المفارقة.. يا عمرو؟! أنّي كنتُ أظنّ أنَّ العرب هم الذين يسرقون أبناءنا.. كي يبيعوهم رقيقاً في الأسواق؛ لكنّي تيقَّنتُ أنَّ قومي هم الذين يبيعون أطفالنا للعرب.. كما فعل بي عمي!؟؟
- يجب أنْ يعرف بنو ضمرة أنَّك مَلِك الحبشة، وأنَّك لستَ عبداً لأحدٍ من الناس!!
- وما ظنّك بهم.. إذا عرفوا؟! ماذا سيفعلون؟؟! هل سيردّون عليّ مُلِكي الذي سلبني إياه أقرب الناس مني منزلة؟؟!
- يا سيدي!! لا تستسلم؛ ينبغي أنْ تتخلَّص.. من هذا الأسر!!؟
- فات أوانه –يا عمرو-؛ قد ضيَّعني قومي.. وغدروا بي؛ فهل أنتظر الإنصاف من غيرهم؟!!
- .....!؟
- ذرني –يا صاحبي- فقد أوشكتُ أنْ أعتاد حياتي الجديدة!!
- كلا! هذه ليستْ حياة!!؟ ولن تُطاوعني نفسي أنْ أدعك هكذا.. بعدما علمتُ حالك؛ سأخبر بني ضمرة بحكايتك، وسألتمس منهم أنْ يقبلوا مني الثمن.. ويتركوك تذهب معي إلى مكة، وستكون آمناً –فيها- في كنف قريش!!
- ألا تعي ما أنا فيه.. يا عمرو؟؟! هَبْ أنّي جاريتُك فيما تريد؛ فهل تظنّ أنَّ أولئك القوم سيفرّطون في مَلِك الحبشة المعزول.. بعدما وقع أسيراً في أيديهم؟؟!

- سأدفع لهم الأموال التي يطلبون.. مهما بالغوا في الثمن، لن أدعك تعيش في هذا الضيم؛ بل.. سآخذك معي إلى مكة، وستنزل ضيفاً كريماً.. عزيزاً علينا، وأيم الله.. أخدمك بنفسي!!
- إذاً.. تكون قد جلبتَ المصائب إلى قومك!!
- ..... !؟؟
- لو استنقذتني من أَسْر بني ضمرة، ثم أخذتني -ضيفاً- إلى مكة.. بعدما يعرفون مَن أنا؛ هل تظنّ أنَّ تلك الأخبار تخفى على عمي والذين غدروا بي معه؟!!
- ..... !!
- لا جرم.. سيعلمون! ولا ريب.. سيسعون للتخلُّص مني، ولحربكم لأنَّكم ساندتموني.. وعرفتم سري وخيانتهم لي! وقومك.. لا قِبَل لهم بجيش الحبشة!! قد أمسيتُ رجلاً ملعوناً –يا عمرو- وسأجلب اللعنة والهلاك على كل مَن يناصرني!!
- كيف ترضى الضيم.. وأنت رجلٌ حرٌّ! وأنت المَلِك.. سليل الملوك؟!!
- على رِسْلِك.. يا عمرو! فالأمر أعظم من هذا؛ قد فشتْ الخيانة في قومي.. وغدر بي أقرب الناس إليَّ!! ولا منجى لي.. ولا ملجأ لي إلا ربي؛ إليه ألوذ.. وبه أعوذ!! لن ينصرني إلا ربي!!
- إذاً.. ذرني أُساوم صاحبك الضمري؛ فأشتريك منه –دون أنْ يعلم حقيقتك- وتأتي معي إلى مكة، وتعيش معنا.. عزيزاً كريما!
- وهذه –أيضاً- ليس فيها.. نجاة!!؟
- لماذا؟؟ .. !

- يا عمرو! إنَّ مكة.. بلدٌ يَؤُمّها العرب من كل صوبٍ.. كما علمتُ منك آنفاً؛ ولا جرم يأتيها أُناسٌ من عرب اليمن!؟
- هذا.. صحيح!!؟
- فكيف لو رآني –عندكم- أحدٌ مِمَن عرفني منهم.. وهم –كما تعلم- كثيرٌ؟؟! لا ريب سينمي خبري إلى عمي والخائنين؛ وساعتئذ.. قد يصيبني -ويصيبكم بسببي- ما لا أحب!! أمّا هنا –في بادية بني ضمرة- في هذه الصحراء الشاسعة.. التي قلما يأتيها أحدٌ مِمَن زار بلاط النجاشي؛ فلن يعرفني أحدٌ، وسأبقى مستوراً!!
- و ترضى بالعيش في هذا الضيم والذل؟!! تالله.. إنّي لا أرضاه لك!؟
- كلُ عيشٍ بعدما فقدتُ مُلْك أبي وعِزَّه.. هو ضيمٌ وذُلّ بالنسبة لي!؟ لكن.. صبراً.. يا عمرو!! فإنّي متيقنٌ أنَّ ربي سيجعل لي فرجا!!

نهضتُ قائماً.. في سخط، وضربتُ الأرض بقدمي.. في تذمُّرٍ واستياء، وهو لم يزل قاعداً –في استسلام- لا يُحرِّك ساكناً، انحنيتُ إليه.. قائلاً بإحباط:

- أيها الأمير!! إنَّك تُضيّع نفسك.. وتُحمّلني ما لا أطيق!!؟

رمقني بنظرةٍ طويلةٍ صامتة؛ وأنا ما زلتُ قائماً.. في تبرُّم، ثم أشار إليّ أنْ أقعد؛ فقعدتُ، ثم همس.. في تؤدة:

- هون عليك.. يا صديقي! واحذر أنْ تدعوني: (بالأمير)، و عدني أنْ تتركني وشأني، و احلف لي بآلهتك –وبكل عزيزٍ لديك- أنْ تكتم خبري؛ فلا يعلم به أحدٌ أبداً.. حتى أهل بيتك!!
- "كيف أتركك وشأنك؟!! نفسي لن تُطاوعني على ذلك!!": أجبتُه.. وحرقة الأسى تلذعني، ثم استطردتُ.. ببصيصٍ من الأمل:

- ذرني أُخبر أبي (العاص)؛ عسى أنْ يكون عنده حَلٌّ لتلك المُعضلة!!؟
- "كلا!! حتى أبيك.. ينبغي ألا يعرف -عن وجودي هنا- شيئاً!!": هتف في جِدِّيَّةٍ وصرامة.. قاطعاً مجادلتي له.

ثم لم يدعني أنصرف –من بين يديه- حتى أقسمتُ له بآلهتي وبكل عزيزٍ عندي ألّا أُفشي سره.. وألّا أفضح أمره؛ فأقسمتُ –على ذلك- مُكرهاً!

*****

في طريق عودتنا إلى مكة.. كنتُ شارد الذهن.. مضطرب الأحوال، سألني أبي عن السبب مراراً؛ فكنتُ أتهرَّب منه، وفيتُ بوعدي.. ودفنتُ النبأ العظيم في صدري، وأخفيتُه حتى عن أبي وأمي وريطة.

بعد استقرارنا في دارنا بمكة.. كنتُ مُتكدِّراً –أغلب الأوقات- وقَلِقاً عابساً على غير عادتي مع أهلي، أدخل وأخرج –ذاهلاً عن كل أحدٍ-؛ فأبدو لهم.. كأنّي أُفتِّش عن شيئاً لا أجده، والحق.. أنّي لا أُفتِّش إلا عن عملٍ أَنصر به أصحمة.. وأفك به كربه!!

بيد أنّي لا أهتدي لشيءٍ؛ فأضطرب.. وأزداد جزعاً وحيرة، وترتاع ريطة.. وتأسف لسوء أحوالي، وتسألني أمي.. وتُلحّ في السؤال، ولا أجيب بما يشفيهما؛ ما كنتُ لأخون عهداً.. وما كنتُ لأحنث في يمينٍ حلفتُه؛ وقد حلَّفني أصحمة.. وقد عاهدتُه!

كتمتُ السِّرَّ في أحشائي.. حتى لاحظ أبي –هو الآخر- تبدُّل حالي واضطرابي، على أنَّ العاص كان أوسع صدراً من أمي وزوجتي.. وأقل جزعاً؛ تركني وشأني.. أُصلح نفسي بنفسي.. شارطاً عليَّ: ألّا أُقصِّر فيما يُكلِّفني به.

تمضي بي الأيام متوانية.. حتى سئمتُها، وسئمتُ عجزي عن نجدة صاحبي، مع مرور الأيام حائرة.. يضيق صدري، ويشتدّ كدري وتجهُّمي.. ويسوء حالي، ويتفاقم الجزع في قلب زوجتي وأمي.

إلى أنْ أشرقتْ علينا شمس يومٍ.. لن أنساه أبدا!!

في صباح ذلك اليوم.. جاء أعرابي إلى العاص.. ليُسِرّه -في أذنه- بحديثٍ.. وَجِل منه أبي، وأمر أنْ تُعدّ له دابته بسرعة، وشرع يتهيَّأ للخروج –وحده- مع ذاك الأعرابي؛ سألتُ.. مُتوجِّساً: "إلى أين.. يا سيدي؟؟!".

هامسني.. والرهبة والانزعاج يُخالطان كلماته:

- يزعم هذا الرجل أنَّ ثَمَّة بطريقاً حبشياً –معه جندٍ كثيف- يرغب أنْ يلقاني، وينتظرني –بفروغ صبر-.. في بادية الصحراء.. قريب من ثغر الشعيبة!؟؟
- يا أبتي! لا تذهب بمفردك! تمهَّل حتى أجمع رجالاً يذهبون معك!!
- البطريق.. يريد أنْ يلقاني وحدي! ويزعم هذا الأعرابي أنَّه أكّد عليه أنْ أكتم الخبر.. حتى عن أهل بيتي!!
- يا أبتي.. هذا أمرٌ يُتَوَجَّس منه! وإنَّ لك.. أعداءً!؟ تالله.. ليس لك مَتْرَك؛ إنّي ذاهبٌ معك!!

أصررتُ على الذهاب معهما.. حرصاً على سلامة أبي؛ فلم يُعارضني.. وانطلقنا إلى حيث ينتظر ذلك البطريق الغامض.

فارقنا بادية مكة، ومضينا نجتاز الصحراء.. قاصدين إلى الشعيبة، طفقتْ الهواجس تعبث في رأسي: **(مَن ذلك البطريق؟! ولماذا معه جندٌ كثيف؟! هل علم النجاشي الغادر.. بأمر أصحمة؛ فأرسل هؤلاء الجند ليتخلَّص منه نهائياً؟!! تَعْساً**

للخبيث الخائن! وأيم الله.. لو أنَّ الأمر كذلك؛ لأجالدنهم بسيفي حتى يتكسَّر في يدي، ثم يكون نحري دون نحر صاحبي!!).

قبل أنْ نقارب ثغر الشعيبة.. انحرف بنا الأعرابي عن الطريق التي تعبرها القوافل، ثم تَوَغل بنا في الصحراء القاحلة.. حتى أنّي ارتبتُ في أمره!؟

لكن.. سرعان ما لاحتْ لنا –في الأفق- قِبابٌ وخِيامٌ حبشية.. قدَّرتُ أنَّها لذلك البطريق وأعوانه؛ وقد كانت.. كما قدَّرتُ!

تطلَّعتُ إليهم.. من بعيد، وطفتُ ببصري حول المكان؛ إنَّهم جنودٌ كثيرون.. قد يتجاوزون المئة جندي، لا يُخفون أسلحتهم.. بل سلاحهم جَلِيٌّ للرائي، حزَّرتُ أنَّ بينهم فرساناً.. لـمَّا رأيتُ معهم عدداً من الأحصنة؛ قلتُ –في نفسي- مُتَوَجِّساً: **(هؤلاء القوم.. جاءوا لأمرٍ خطير؛ لقد جاءوا يشنّون حرباً!!؟).**

تَوَقَّعتُ –أيضاً.. وبما أنَّ اللقاء قريبٌ من ثغر الشعيبة- أنَّهم قادمون عبر البحر؛ فإنَّ الشعيبةَ ميناءُ مكة الذي تقصده سفن المسافرين -منها.. وإليها- عبر بحر القلزم، ولا ريب أنَّ سفنهم تنتظرهم في الميناء!؟

دنونا من عسكرهم؛ فأحاط بنا جنودٌ.. يحملون -في أيديهم- رماحهم القصيرة التي تسمى: (مَزاريق)، استَوثقوا من شخوصنا، ثم قادنا أحدهم إلى مُقدِّمهم الذي اصطحبنا –بدوره- إلى خباء البطريق.

دلفنا إليه.. فإذا هو أحد البطارقة أصدقاء أبي؛ وأحد رجال القصر الذين كنتُ أحسبهم من خواص النجاشي (أبجر).. الأوفياء لأصحمة.

بعد استهجانه قدومي بغير دعوة واعتذار العاص عن ذلك.. أعرض عني، ثم رحَّب بأبي ترحيباً فاتراً.. وسمح لنا بالجلوس.

انتظرناه يُفصح عمَّا يريد؛ غير أنَّه كان يماطل، ولم يخفَ عليَّ ارتباكه واضطرابه، تمالكتُ نفسي.. مع أنْ الغيظ يأكل أحشائي؛ بينما أبي يحلم عليه.. ويُجاريه في ثرثرته التافهة.

ثم بدأ يكاشفنا بما جاء من أجله؛ فتحدَّث بصوتٍ خافت -**كأنَّما يخشى أنْ يسمعه عمودُ خيمته**- فقال:

- يا أبا عمرو! لابد أنَّك علمتَ إخلال المَلِك بوصية مولانا النجاشي (أبجر)، وببيعه لولي عهده مولانا (أصحمة) للنخَّاسين.. كأنَّه عبداً!!

جاوبه أبي -**غير آبِهٍ بجنوده المحيطين بالمكان**- بلا تردُّد.. وبلا مُوَاربة:

- نعم.. علمتُ! وخسرتُ بسببه أموالاً كثيرة! ولقد أسفتُ لذلك، وتحسَّرتُ على مُلْك الحبشة.. الذي أتنبَّأ أنَّ مآله إلى زوال!!
- التصارُع على العرش.. سِمَةٌ دأب الملوك عليها؛ فلِمَ تتنبَّأ بزوال مُلْك الحبشة.. يا رجل؟!!
- يجوز أنْ يتنافس رجلان على المُلْك.. ويتحاربا عليه أيضاً! لكنْ.. أنْ يُجحف المَلِك بوصية سلفه.. الذي هو أخوه، وأنْ يمكر المَلِك بابن أخيه و وَلِيّ عهده؛ فإنَّه نذير شؤم! وهذا –**في نظري**- هو ما يُسقِط العروش.. فوق رءوس أصحابها!!
- أصبتَ.. يا رجل! وقد صدقتْ نبوءتك!! ولقد أتيتُ إليك –**اليوم**- لأبحث عن مولانا (أصحمة)!!؟

عجزتُ عن التزام الصمت، وانبريتُ.. أهتف باستهجان:

- أُفٍ لكم.. أُف! جئتم تبحثون عنه بعدما خَتَرتم عهدأبيه، وخنتم وصيته لكم؟!!

حدجني بنظرةٍ شزراء.. وهتف باستياء:

- ماذا تقول.. يا فتى؟!! كيف تخاطبني بهذه اللهجة.. ألا تستحي؟!!

وزجرني العاص.. صائحاً:

- مَهْ.. يا عمرو!! واعتذر إلى البطريرك!

أمسكتُ عنه لساني –مُتأفِّفاً- تَوقيراً لوالدي، لكن.. كبريائي وتغيُّظي من خيانتهم.. جعلاني أتثاقل عن الاعتذار له!

وقبل أنْ يعتذر لساني.. ضرب البطريق الهواء بيده، وضرب صفحاً عني.. مُخاطِباً والدي.. بلهجةٍ آسفةٍ نادمة:

- ولدك محقٌ.. يا عاص!! والأجدر أنْ أخجل أنا من نفسي.. لتقصيري في وصية مولانا (أبجر)، ولتقاعسي عن الوفاء لمولاي (أصحمة)!!؟ تخاذلتُ.. وخشيتُ على نفسي من ذاك الملك الغدور الغاشم!!؟ ونسيتُ أنَّ الرب –**الذي أخدم كنيسته**- أقوى من الجميع، وأنَّه قادرٌ على أنْ ينتصف للمظلوم، وأنْ يردّ الحق إلى أصحابه!!

- "ماذا تريد أنْ تقول.. أيها البطريرك؟؟!": تساءل العاص.

- قد انتقم الربُ.. مِن المَلِك الغادر!!

حملقنا فيه.. مندهشَيْن، ثم سأله أبي.. والفرحة تتلألأ في عيني:

- هل حدث.. حقاً؟!! كيف ذلك.. أيها البطريرك.. خلاك ذمّ؟؟!

- أجل!! ذات ليلةٍ مطيرة.. خرج –**إلى شرفته**- يلهو تحت المطر؛ فأصابته صاعقة السماء.. فمات من فوره! وقد علمنا –**نحن**

الأساقفة- أنَّها جزاءً لإجحافه وظلمه لمولانا (أصحمة)!! وإنَّما هذا نذيرٌ –للحبشة- من الرب الرحيم!! وإنْ لم نرجع عن إخلالنا بوصية مولانا (أبجر)؛ فإنّنا –لا محالة- مُصيبنا ما أصاب ذاك المَلِك الظالم!! فندمنا.. وتداركنا أمرنا.. وتبنا إلى ربنا! وعزمنا على أنْ نسترجع مولانا (أصحمة).. ونُملِّكه على الحبشة!!

- أحسنتم صنعاً؛ فالإنابة -والإذعان إلى الحق- مِن محاسن الأخلاق! لكنَّك.. حتى –الآن- لم تصارحني.. بما تريده مني!؟؟
- أنت رجلٌ ذو فراسة.. يا أبا عمرو؛ فكيف لم تفطن لأنّني جئتُك كي تبحث –معنا- عن مولانا (أصحمة)؟؟!
- أَنَّى لي أنْ أبحث عنه.. أيها البطريرك المُبجَّل؟!!
- تتبَّعنا الأخبار والآثار إلى أنْ علمنا أنَّ الذين ابتاعوه جماعةٌ من عرب الحجاز!؟ وإنّا لا نثق في أحدٍ من عرب الحجاز غيرك، وإنَّك كنتَ نقيمهم عند النجاشي (أبجر)؛ لذا.. نلتمس منك المساعدة!!؟
- ألم تعلموا: إلى أي عشيرةٍ أو قبيلة.. ينتمي هؤلاء الذين اشتروه؟؟!
- كلا!! لا نعرف سِوَى أنَّه مأسورٌ عند حيٍّ من أحياء عرب الحجاز!!

انبعث العاص يهتف.. مُؤنِّباً.. مُستقبِحاً:

- تريد مني أنْ أترك أموالي، وأُعطِّل تجارتي.. لأطوف معك في أرض الحجاز مُنقِّباً عن سيدك؟؟! مَن ذا الذي يوافقك على هذا؟!!

أعرف أبي حينما يساوم في الصفقات؛ وها هو ذا يساوم البطريق.. راجياً أنْ يجلب –من ورائه- نفعاً!!

أمَّا أنا.. فقد لاحتْ لي بارقةُ أمل لاستنقاذ أصحمة؛ ولن أدعها تخبو، لكن.. ينبغي أنْ أستوثق من صدق عزم البطريق ورجاله، وعليَّ أنْ أتأكَّد من استتباب الأمر –في أرض الحبشة- لأصحمة.. قبل أنْ أدلهم على مكانه!!

انبريتُ للبطريق.. سائلاً بِجدِّيَّة:

- وهل كلكم على قلب رجلٍ واحد.. أيها البطريرك المُبجَّل؟؟ أم أنَّ بعضكم يستقصي عنه ليُملِّكه الحبشة، والبعض الآخر.. يتحرَّى عنه ليتخلَّص منه!؟؟
- لقد ندمنا على ما فات، وعرفنا قَدْر مولانا النجاشي (أبجر) عند ربنا!! ولقد طهَّرنا أنفسنا من الخونة الذين بيننا، وأصبحنا –على قلب رجلٍ واحد- نسعى لنجد مولانا (أصحمة).. لنُملِّكه علينا!!
- أ تُقسِم بربك وشرفك –وكل عزيزلديك-.. على هذا؟؟!

نهرني العاص.. مُتصنِّعاً الغضب:

- ويحك.. يا عمرو! وما شأننا نحن بملكهم؛ لن نُعطِّل مصالحنا لأجل البحث معهم عن رجلٍ.. لن يجدوه!!
- على رِسْلِك.. يا أبا عمرو! أنت صديقنا.. والأحرى بك ألَّا تتخلَّى عنَّا، وأعدك –إنْ اجتهدتَ معنا حتى نعثرعلى مَلِكنا- أنْ نعوِّضك عن خسارتك السابقة.. واللاحقة!!

سال لعاب العاص.. طامعاً في ثمرة الصفقة التي نضجتْ، و هَمَّ أنْ يجيب الرجل لِمَا أراد، على أنِّي لم أُمهلهما؛ وابتدرتُ البطريق.. هاتفاً بجِدِّيَّة:

- لن نسعى معك فيما تريد.. قبل أنْ تُقسم لنا –أنت ورجالك- بإلهكم الأعظم أنَّكم ستحفظون الملك الأصحم.. وتخضعون له، وستكونون رِدءً له.. وجنوداً مخلصين!!
- أيها الفتى!؟ تتحدَّث كأنَّك تنصح لمولانا (أصحمة) أكثر منَّا؟!!
- وهل نصحتم له حين كان بين أظهركم؟!! هل حفظتموه.. وحفظتم وصية أبيه النجاشي؟؟!
- رغم أنَّك شابٌ غَضّ؛ إلا أنَّك ذو عقلٍ، لكن.. لسانك صفيق!!
- لا تُثقِّل على البطريرك.. يا عمرو!! يكفي أنْ يعدنا بتعويض خسائرنا؛ وسنبحث معه عن سيدهم.. حتى نعثر عليه!!
- "دعه.. يا أبا عمرو!": هتف بصرامة، ثم التفت إليَّ مُخاطباً: "لك ما تريد.. أيها الفتى! فأنا –أيضاً- أحبذ أنْ يحلف أولئك الجند على الوفاء لمولانا (أصحمة)، وعلى فدائه بأرواحهم!!".

على الفور.. استدعى مُقدِّم جنوده، وأمره أنْ يجمع له الجنود في صفوف، ثم خرج هو إليهم –بعد برهة- وتركني وأبي وحيدَيْن في الخباء.

ربت العاص على كتفي.. وهامسني مادحاً:

- لله درك.. يا ولدي! أصبحتَ أمهر مني في عقد الصفقات! بعد الذي قلتَه.. أرى –بعين بصيرتي- أنَّ ذلك البطريق سيبذل لنا كل ما نطلب نظير مساعدته! وإنْ عثرنا على ابن النجاشي –رغم أنّي استبعده-؛ فلا ريب.. ستكون مكافأته لنا أشدّ سخاءً!!
- لماذا تستبعد أنْ نعثر على أصحمة.. يا أبتي؟؟!

- يا عمرو!! فتى صغير مُدلَّل –كابن النجاشي- تربى في القصور؛ يلبس الثوب الناعم.. وينام على الفراش اللين.. ويأكل مُستطاب الطعام، ذلك الفتى المُتْرَف المُنعَّم.. لن يتحمَّل قسوة العيش في بادية الصحراء؛ فضلاً عن مكابدة شقاء العبودية فيها!! الرأى عندي: أنَّه هلك وهو يرسف في قيوده.. منذ مدة!! لكن.. لا بأس أنْ نبحث معهم، ونعوِّض -بالأجر الذي سنُحصِّله- بعض خسارتنا!!
- يا أبا عمرو! إنَّ أصحمة حيٌّ، وأنا أعرف: أين نجده!!
- ويحك!! أ تعي.. ما ينطق به لسانك؟!!

لم أجبه؛ فقد دخل البطريق الخباء، واقتحم خلوتنا.. هاتفاً بصرامة:

- أُخرجا معي.. لتُشاهدا وتسمعا خير أجناد الحبشة.. وهم يُقسمون بالمسيح على الوفاء للنجاشي (أصحمة بن أبجر)، وعلى فدائه بأرواحهم، ولكي تكونا شاهدين علينا أمام ربنا!!

كان المشهد مهيباً، لأول مرة –في حياتي- أرى هذا العدد من الفرسان والجنود يصطفون في صفوفٍ مُنتظمة، ويهتفون بملء حناجرهم بحياة النجاشي (أصحمة بن أبجر)، ويتعاهدون على التضحية بأرواحهم فداءً له!!

ثم اختلَى بنا البطريق –وبعض الأساقفة- والتمس من العاص أنْ نشرع في البحث عن أصحمة فوراً، غير أنْ العاص استمهله حتى نرجع إلى مكة.. ليرتب بعض الأمور، ثم نعود إليهم؛ فقال له البطريق في حسم:

- أُمهلك يومين.. ثم تأتينا في ثالثهما؛ لن نصبر أكثر من ذلك.. يا أبا عمرو! و أُوصيك بألا يعرف أحدٌ -من العرب- موقع معسكرنا هذا،

وبكتمان أمر مولانا (أصحمة).. حتى نجده، ويرجع آمناً سالماً إلى مُلْكه في الحبشة، ويجلس على عرشه!!

- لا ترتاع.. أيها البطريرك المُبجَّل! ولستَ في حاجةٍ بأنْ توصيني!!

هممنا بالانصراف.. فاستمهلنا، ثم وضع صندوقاً صغيراً بين يدي العاص؛ فتحه.. فإذا به أكياسٌ من الدنانير، ابتسم العاص برضا؛ فقال البطريق:

- خذ هذا المال! ليس كلَ مستحقك؛ إنَّما –فقط- ضمانةٌ.. لتجتهد معنا حتى نعثر على مولانا!!
- شكراً لك.. أيها البطريرك! أدخلتَ السرور على قلوبنا؛ فلن نخذلك! ائذن لي في الانصراف.. كيلا أتأخَّر عليك في العودة!
- انتظر.. سأرسل معك بعض الحرس.. حتى تصل مأمنك بهذا المال!!
- لا تخشى عليَّ.. أيها البطريرك! لا أحدٌ -من العرب- يجرؤ أنْ يعترض العاص بن وائل السهمي القرشي؛ ولو كنتُ أسير وحدي –في هذه الصحراء- بكنوز الحبشة قاطبةً!!

هي مبالغةٌ من العاص.. لا ينشد بها غير الفخر بنسبه وقومه ومكانتهم عند العرب، ويرمي بها إلى رفع قيمة مكافأته، ولا شك أنَّ البطريق فطن لهذا؛ لذا.. فقد أَصرّ على أنْ يصحبنا حرسٌ –من عنده- حتى نبلغ مأمننا.

في الطريق –حيث صحبنا الحرس الحبشي- لم يخاطبني العاص في أمر أصحمة؛ لا غرو.. يخشى أنْ يكون أحدهم عليماً بالعربية، ويتصنَّت علينا.. ويعرف مكانه؛ فيخسر العاص مكافأته.

بيد أنَّه لم يُمهلني؛ قبل أنْ نطمئنّ في الدار.. اختلى بي، وسألني.. باهتمامٍ:

- قلتَ: أنَّه حيٌّ، وأنَّك تعلم: أين نجده! فهل أنت جادٌّ في قولك؟؟!
- نعم.. يا أبتي! إنَّه حيٌّ، ويرعى الإبل.. في بادية بني ضمرة!

وحكيتُ له كل ما جرى بيني وبين أصحمة.. آنذاك.

سكت.. وبدتْ الجِدِّيَّة على ملامحه، ولبث مدة يتفكَّر.. تفكيراً عميقاً؛ وأنا جالسٌ –إلى جواره- أرقبه، ثم ابتدرني.. مُخافِتاً:

- لو علم بنو ضمرة بحقيقته؛ فلن يُسلِّموه لنا، ولو انتزعناه منهم انتزاعاً.. بأولئك الجنود الأحباش؛ فلسوف تكون مقتلةً عظيمة!!؟
- فماذا ترى.. يا أبتي؟؟!!
- ما لا يؤخذ عنوة؛ يؤخذ بالحيلة.. يا ولدي!
- وكيف نحتال لأمرٍ.. كهذا؟!!
- أرى أنْ نخطفه.. من بين بني ضمرة!!
- كيف ذلك؟! بنو ضمرة.. ليسوا بهذه الغفلة والسذاجة!؟؟
- هذا ما ينبغي أنْ أُخطط له بحذرٍ.. يا عمرو!!

*****

عدنا إلى العسكر الحبشي؛ وقد دبَّر العاص خطةٌ حصيفة، واصطحب معنا بضعة رجال من ثقاتنا السهميين، وخِرّيتاً حاذقاً ليجتاز بنا في طريقٍ غير مأهولة، و يدلّنا على مراعي بني ضمرة.. ويوصِّلنا إليها في ستر.

قبل الانطلاق.. اجتمع أبي بالبطريق وقادة جنده، وشرح لهم خطته؛ فأثنوا عليها.. وقبلوا العمل بها، وقام مُقدِّم الجند.. ليكلِّف رجاله بمهامهم، وكُلِّفتُ –أنا أيضاً- بمهمتي.

تحت ستار الليل.. تحرَّكنا، وزحف العسكر الحبشي –معنا- إلى ديار بني ضمرة، عندما دنونا من مضاربهم.. تَوَقَّف البطريق وأغلب عسكره، وتَنَحّوا -مُختبئين عن الأعين المتلصِّصة- في جوف الصحراء، وانفصلتُ –أنا- مع شرذمةٍ من فرسانهم الأشداء.. لنداهم المرعى بما فيه من عبيدٍ وإبل.

انسللنا خُفية.. وتربَّصنا حتى لاحتْ لنا الإبل يسوقها بعض عبيد بني ضمرة، راقبناهم.. من بعيد، ولمحتُ أصحمة بينهم، تريَّثنا حتى واتتنا منهم غفلةٌ؛ داهمناهم.. وقبضنا علىهم أجمعين.. دون أنْ نُنفِّر الإبل، بُغِت الفتيان.. وذهلوا عن مقاومتنا.

قيَّدناهم.. وأقبلتُ على أصمحة، قبَّلتُ يده.. وسجد له الفرسان الذين معي.. وهو مُتخشِّب الأوصال.. مشدوهاً؛ لَمَّا يعِ ما يجري حوله، ترفَّقتُ به.. وهتفتُ.. بتبجيلٍ وتوقير:

- مولاي.. المَلِك! لا ترتاع! لقد جئنا من أجل سلامتك!!
- مَن هؤلاء.. يا عمرو؟؟!
- إنَّهم جنودك.. يا مولاي! بل.. هم فريقٌ منهم، الآخرون ينتظرونك في خيمة مُلْكك.. يا جلالة النجاشي!
- أنا.. لا أفهم: ما الذي يحدث يا عمرو!؟؟

في عجالة.. سردتُ له ما جرى بيننا وبين البطريق، وأعلمتُه بأنَّهم عاهدوني على الوفاء له.. وأقسموا لي على فدائه بأرواحهم.

سكت.. سكوت مَن يستجمع شتات عقله، وما بدتْ عليه أمارات الفرح التي كنتُ أتَوَقَّع، إنَّما طفق يتطلَّع إلى السماء –في صمت- بعيونٍ تملأها دموع الامتنان؛ قدَّرتُ أنَّه يشكر ربه.

أجلسناه تحت مظلةٍ.. أُعدتْ له، وجاءه أحد الفرسان بشرابٍ بارد؛ فامتنع.. إلا أنْ يُسقى العبيدُ -الذين فزعوا- مثله؛ فامتثلنا.. وشربوا جميعاً.

ثم أتاه قائد الفرسان.. يلتمس منه –على استحياء- الإذن بالانصراف إلى عسكرهم.. **قبل أنْ ينتبه لنا بنو ضمرة ويداهمنا محاربوهم.. ونتقاتل معهم**؛ فهو أدعى لأمنه وسلامته، فأمر بفك قَيْد العبيد.. قبل أنْ يأذن بالانصراف، ثم انسحبنا به إلى حيث ينتظر البطريق وعسكره.

قُبيل المُخيِّم.. خرج البطريق -ورؤساء الأساقفة- لاستقباله، وضع البطريق تاج المُلْك.. على رأسه، وألبسوه عباءةً نفيسة مزركشة، ثم خَرُّوا على وجوههم –**بين يديه**- سُجدا.

ثم دلف إلى المُخيَّم، استقبلوه بحفاوةٍ وتبجيلٍ.. ودموعٍ وفرح وتهليل، ثم هَوَى الأساقفة والجنود -أجمعون- ساجدين تحت قدميه، وما انفكوا يعتذرون ويبكون.. ويسألونه المغفرة والعفو.

مشهدٌ أثلج صدري.. وابتهجتُ به؛ أحسستُ بصفاءٍ وارتياح نفس.. لأنّي تمكَّنتُ من نجدة صاحبي، واستطعتُ أنْ أنتشله من الضيم والذل، وها هو ذا قد بلغ مأمنه، وأصبح قاب قوسين من استرداد مُلْك أبيه.

أمّا والدي (**العاص**).. فدوره –**الذي وضعه لنفسه في الخطة**- أنْ يذهب إلى بني ضمرة.. فيما أخطف –**أنا ومَن معي**- أصحمة؛ وذلك.. ليسكِّن غضبهم إذا علموا أنّنا -نحن- مَن سلبناهم أصحمة.. ولابد سيعلمون؛ وذلك.. كيلا تُنتقض الصِّلَة التي بيننا وبينهم، وتالله.. إنَّها مهمةٌ لا تقل خطورة عن

مهمتي؛ فهو سيتحمَّل –بمفرده- غضبة بني ضمرة حين يصلهم النبأ؛ وقد يكون رَدُّهم عنيفاً، وإنَّها لشجاعةٌ منه!!

بعد إطمئناني على أصحمة.. تقاذفتني الظنون، وغشيني الهلع.. خوفاً على والدي، بيد أنّي استحييتُ أنْ أُفسد على أصحمة بهجته بنجاته؛ فتماسكتُ.. إلى حين!!؟

نصبوا خيمةً عظيمةً.. تليق بالمَلِك، وأُدخِل النجاشي (أصحمة) فيها ، تنحَّيتُ عنه إذ حضر عبيده.. ليُغسِّلوه ويُطيِّبوه، ثم وضعوا له مائدة الطعام؛ فدعاني إليها.. فأكلتُ معه، وما سمح لي بمفارقته -بعدها- امتناناً منه.. وتقديراً لي.

لم يكد النهار ينتصف، وفيما يتهيَّأ العسكر لرحلة إنسحابٍ آمنة إلى الحبشة.. أمسك الحرس برجلين عربيين يقتربان من المخيّم المستور؛ تحفَّظوا عليهما.. ووضعوهما بين يدي البطريق.

أحدهما كان والدي، تنفَّستُ الصعداء.. لنجاته من غضبة بني ضمرة، فك البطريق قَيْده.. وأحضره أمام النجاشي، حيَّاه أبي بتعظيم؛ فقام له أصحمة.. وأقبل عليه باشّاً مُرحِّباً.

وأجلسه إلى جواره.. هاتفاً بامتنانٍ وتَوقير:

- يا شيخ قريش! أنت.. و ولدك (عمرو) لكما علينا مِنَّةٌ مشكورة!
- المِنَّةُ.. لكم –ولأبيكم.. مِن قبلُ- يا جلالة المَلِك!!
- لا ريب.. سنجزيكما بها.. خير جزاء.. حتى ترضى!!

- ما يرضينا هو: سلامة مولانا (النجاشي) واستقرار مُلِكه ودولته! لكن.. لو أذن لي جلالة المَلِك.. برجاء!؟؟
- ما هو رجاءك.. يا أبا عمرو؟؟
- "عبدك الضمري.. أتى معي.. يتعشَّم أنْ يُقبِّل الأرض بين يديك، وأنْ يُكلِّم جلالتك!!؟": قالها بتحفُّظٍ خَجِلٍ.. مُشيراً إلى الرجل الضمري الذي كان سيده.. قبل أول النهار.
- لن أنسى أنَّه –ذات يومٍ- كان.. سيدي! وله علينا حقٌ.. يتَوَجب علينا أنْ نُوفِّيه إياه!!
- بل.. أنت –يا جلالة الملك- سيدنا.. ومولانا.. وتاج رءوسنا!

أومأ إلى قائد حرسه أنْ يُدخِلوا الضمري؛ أحضروه بين يديه.. فيما نحن جُلُوسٌ عنده.. والبطريق وجماعة القساوسة، أومأ إليهم: أنْ فكوا قَيْده؛ ففكوه، أخذته هيبة النجاشي.. وارتجّ في كلامه؛ فقالوا له:

- تَوَسَّلتَ أنْ تُكلِّم جلالة المَلِك! ها أنت ذا بين يديه؛ فكلِّمه!
- أيها الملك! ابتعتُ غلاماً من قومٍ بالسوق بست مائة درهم؛ فأسلموه إليّ.. وأخذوا دراهمي، ثم أدركوني؛ فأخذوا غلامي.. ومنعوني دراهمي!؟؟

كان الرجل مبغوتاً.. لمَّا يُصدِّق –بعدُ- أنْ عبده الحبشي صباحاً.. صار نجاشي الحبشة مساءً؛ فجعل يُقدِّم شكواه بالتلميح.. لا بالتصريح.

نهض النجاشي من مجلسه، وأقبل على الرجل يُطيِّب خاطره، ثم التفت إلى البطريق.. وهتف في حسم:

- لتعطنه دراهمه! أو ليسلمن غلامه في يديه؛ فليذهبن به حيث يشاء!!

- بل.. نعطيه.. دراهمه.. يا جلالة المَلِك!!

رمقتُه بإعجابٍ، وحدَّثتُ نفسي: **"قد صدقتْ فراستي فيك.. يا أصحمة!! إنَّك خليقٌ بالمُلْك، وستكون مَلِكاً قوياً.. صلباً في دينك.. عدلاً في حكمك!!".**

استعاد الضمري دراهمه، وأجزل النجاشي له العطاء، ثم انصرف شاكراً مُمتنّاً، ثم جاء البطريق يستأذن النجاشي في الارتحال إلى ثغر الشعيبة.. ومنها إلى الحبشة.. عَبْر البحر؛ فأذن بانفضاض المُخيَّم.. والرحيل.

أراد النجاشي أنْ يُودِّع أبي؛ فرفض العاص إلا أنْ نصحب النجاشي.. وركبه –**خلال الصحراء**- حتى يبلغ ثغر الشعيبة.. ويصعد إلى سفينته آمناً مُطمئناً.

*****

سلك النجاشي (أصحمة) طريقه إلى الحبشة، وتسلَّم مُلْكه.. واعتلى عرش أبيه، ولم يفت العاص أنْ يُتابع أخباره.. وما انفك يسأل عنها القوافل والركبان القادمين من الحبشة واليمن؛ فبلغنا عنه ما يُطمئننا.. ويُثلج صدورنا، وشرع أبي يُجهِّز قافلته إلى الحبشة.. عازماً أنْ يحمل معه هدايا قيمة تليق بالنجاشي.. ليَصِل بها الود القديم.

وقبيل أنْ نُتمّ تجهيز القافلة.. جاء الخبر إلى والدي: النجاشي (أصحمة) يدعونا إلى قصره بأكسوم.. ليجزينا حقنا.

لم أر أبي –يوماً- أشدّ فرحاً مِن ذلك اليوم؛ أقبل عليّ مُبشِّراً.. يهتف: "هَلُمَّ.. يا عمرو.. إلى جاهك وفخرك الذي ينتظرك! قد استقر لصاحبك مُلْكُ أبيه..

ودانت له الحبشة! ويدعوك ليستقبلك –بنفسه- في قصره! لعَمْرُك.. قد أصبحتَ العربي الأقرب إلى النجاشي.. يا ولدي!!".

أحببتُ أنْ أصحب زوجتي (ريطة) معي؛ فإنَّ رحلةً –كهذه- قد تطول عن سوابقها، **والحق.. أنّها لن تقدر على فراقي، ولن أتحمَّل بُعدي عنها مدةً طويلة!!** استأذنتُ أبي في اصطحابها معنا، وألححتُ في الطلب.. حتى أباح لي اصطحابها.. على مضض، وكانت سعادتها غامرة.

ثم هرعنا إلى الحبشة في رحلةٍ.. كانت أسعد رحلات حياتي، لم نكن –أنا وهي- مُنفكَيْن عن التناجي معاً طوال الرحلة.. حتى ينهرنا أبي، ولقد أحسنّا الوفود على النجاشي.. وقَدَّمنا له ولحاشيته الهدايا القيمة.
ولقد أحسن النجاشي استقبالنا وسُرَّ بنا، ورحَّبتْ نساؤه بامرأتي.. واهتممن بها اهتماماً خاصاً، وعرض أصحمة عليَّ مكافأة خاصة جزاء ما سعيتُ في نجدته.. ونظير مساعدتي في استعادة مُلْكه، أبيتُ أنْ أقبض أجراً عن مُؤازرة صديقٍ في محنته؛ امتن لي بشدة، وأكبرني.. هاتفاً:

- لقد علا قدرك عندنا.. يا عمرو! وازددتَ منا قُرباً!
- وأنا.. ازددتُ –بذلك- عزّاً وشرفاً.. يا جلالة الملك!

أقمنا في قصر النجاشي –**وفي ديار الحبشة**- إقامة كريمة مضيافة، ثم منحنا –أنا وأبي- امتيازات تجارية واسعة في أرضه.. كمكافأةٍ لنا خاصة، شكرناه.. ومدحنا سخائه، وعند الرحيل.. ودَّعنا بنفسه، وأهدتْ نساؤه لزوجتي هدايا نفيسة، ونا شدنني –**بل.. وشفَّعنّ النجاشي عندي**- لإحضار ريطة إليهن في الرحلات القادمة.

أثنيتُ عليهنّ.. وعلى مودتهنّ لزوجتي.. ووعدتُهنّ خيراً.

****

-الفصل الثالث-

فارقنا بلال الحبشي.. قافلين إلى مكة، حاملين من آيات العزّ والفخر.. ما يضع والدي **(العاص بن وائل السهمي)** في صدارة أسياد قريش ومكة.

على أنّنا حين رجعنا.. وجدنا مكة قد تبدَّلتْ أحوالها عمّا خلَّفناها عليه؛ فقد جهر محمد بن عبد الله بن عبد المطلب -**وهو من بني هاشم بن عبد مناف**- بالدعوة إلى دينٍ جديد: ينبذ الآلهة إلا إله واحد، وينذر الناسَ بنُشُورٍ وحسابٍ.. بعد الموت.

لم اكترث له، غير أنَّ العاص ناصبه العداء.. كما عاداه سادة مكة كافَّة؛ بل.. وكان يسخر منه.. ويهزأ به:

- ألم يجد الله غير محمدٍ ليبعثه إلينا رسولاً؟!! ومَن ذا الذي يُحيي العظام.. بعدما صارت رميما؟!! ومَن الأحمق الذي يُصدِّق هذا الهراء؟!!

لو صادف.. وتفكَّرتُ في المسألة -**رغم أنّها لا تعنيني**- أجد رأي أبي صائباً.. وأقرب إلى الحقيقة التي لا يُخالفها سِوَى مجنونٌ أو سفيه!

وحينما أُناجيه.. أزداد قناعةً بصواب رأيه:

- إنْ سَلَّمنا بصدق محمدٍ؛ فهل ننبذ آلهة العرب التي حول الكعبة؟! هل نعادي العرب ودينهم الذي ارتضاه الآباء والأجداد؟!! هل ندع الأموال المحجورة لتلك الآلهة.. التي وُكِّل بنو سهم بها؟!! هل نتخلّى عن ذلك الشرف.. وتلك المكاسب؟!! إنَّ الذي يدعونا إلى شيءٍ كهذا.. لمجنونٌ!!؟

نزعتُ يدي مِن دعوة محمد الضَّالَّة.. وانشغلتُ بتجارتي وتنمية مكاسبي.

على أنّنا –ومع تراكم الشهور والأيام- تفاجأنا بتَفَشِّي دعوته في بيوت قريش.. حتى اتَّبعه كثيرٌ مِن سفهاء الأبناء وعصاة العبيد.

وفُجِعنا في عددٍ مِن شباب بني سهم؛ إذ اكتشفنا أنَّهم آمنوا بتلك الدعوة الخبيثة، واتَّبعوا محمداً.. سِرّاً؛ كان في طليعتهم: أخي الغِرّ –**العاق لأبيه- (هشام)**.. الذي لم يعبأ لشرف أبيه إذ يعيبه الناس بصبوء ولده!!؟

سجنه أَبِي.. وعذَّبه، كان يجلده –**كل يومٍ**- بالسياط.. ليثوب إلى رشده ويرجع إلى طاعة أبيه دونما يَرِقّ له قلبُ أحدٍ منّا.. عدا ما كان مِن رأفة زوجتي به؛ فباتتْ تسقيه وتطعمه.. أحياناً؛ لكن.. الصابئ استرسل في غَيّه.. وثبت على عقوقه!!

ومثلما صنع العاص بولده العاق.. صنع بنو سهم بالصابئين من أبنائهم؛ هَمُّوا بهم.. وضيَّقوا عليهم، ونكَّلوا بهم زمناً.. حتى غافلنا بضعةُ عشر رجلاً منهم.. وفَرّوا إلى الحبشة؛ ورُزِأ أَبِي بأنَّ فيهم: أخي **(هشام)**!؟؟

ارتبتُ في ريطة أنَّها يسَّرتْ له سبيل الهروب مِن محبسه.. شفقةً منها؛ لكنِّي تغافلتُ.. ولم أُعاتبها حرصاً على قلبها الرقيق.. ألا أجرحه!!

استاء العاص بشدة.. وسخط على ولده الصابئ، وأقسم لإنْ ظفر به ليُعذِّبنّه حتى يرجع عن ذلك الدين الجديد الباطل؛ لكن.. أَنَّى هذا.. وقد تَمكَّن هذا الصابئ -**وكثيرون.. مثله**- من الفرار من بين أيدينا، وقد أوغلوا إلى بلادٍ بعيدة؛ وكان السؤال:

- مَن يأتينا بهم.. وقد ابتعدوا إلى الحبشة؟!!

لم يتردَّد هذا السؤال على لسان العاص -وأسياد بني سهم- فقط، إنَّما ظَلّ يدور على ألسنة سادة قريش وملأها.. حتى أجمعوا أن ليس لها سِوَى نديم النجاشي وصاحبه: **(عمرو بن العاص السهمي)**.

أخذني أبي –باعتزازٍ- إلى دار الندوة هاتفاً:

- يا عمرو! إنَّ ملأ قريش يأتمرون بأولئك الصباة ليقتلعوهم مِن الحبشة.. ويستردّوهم؛ وأنت لها.. ياولدي!!

رحَّبوا بي قائلين:

- يا ابن العاص! هل تشفع لنا عند صاحبك –**النجاشي**- في استرجاع هؤلاء الصباة الذين فارقوا ديننا.. ولم يدخلوا في دينه؟؟!

أجبتُ–**وعيون أبي ترمقني بافتخار**- بثقةٍ تامة:

- أجل.. يا سادة قريش! أنا لها؛ لكن.. أعينوني بهدايا.. أرشوه بها!
- نعم.. نُعينك! خذ مِن أموالنا ماشئتَ.. حتى تأتيه بما يُحِب!!

ثم أردف الوليد بن المغيرة –**شيخ مخزوم وأوسع سادة مكة ثراءً**- :

- سأهبك ما يكفيك وزيادة! وليُرافقك ولدي **(عمارة بن الوليد)**؛ فهو.. خير سفير لنا معك!!

أُفٍّ لذلك العربيد المُتغطرس! كيف أصحبه معي؟!! يزعم أبوه أنَّه خير سفير لقريش؟!! بل –وأيم الله- إنَّه لشر سفير!!

لستُ مُغفَّلاً! أعلم -يقيناً- أنَّ الوليد بن المغيرة أراد لابنه المغرور أنْ يتسلَّق على أكتافي لينال حُظْوَةً عند النجاشي؛فيُعددها في أحسابه.. ويُمكِّن له في ملأ قريش، هيهات.. هيهات.. يا شيخ مخزوم!

بعد انتهاء اجتماع دار الندوة.. انفردتُ بأبي، وصارحتُه بعدم رغبتي في اصطحاب هذا الغِطْريس الأثيم، بيد أنَّ العاص عاتبني.. هامساً:

- أعلم -يا عمرو- ما تخشاه!؟ لكنْ لا نملك أنْ نرفض اصطحابه معك؛ فإنّك –في سفارتك- تحتاج إلى أموال أبيه.. و قومه!!؟
- أخشى أنْ يستفزّ حميَّتي بكبره وسوء خلقه؛ فأجرحه.. وربما أقتله!!
- حذار.. يا بني!! فلئن فعلتَ.. فقد أشعلتَ حرباً بيننا وبين مخزوم، قد يهلك فيها الحيّين!؟؟
- .....!؟؟
- اصطبر عليه.. يا عمرو! وتمسَّك بحلمك وأناتك! واستعن بحيلتك ودهائك.. حتى تنجح سفارتك! واعلم أنَّ في نجاحها حظوة لك.. وشرف بين قومك!!
- "أعمل.. ما تحب.. يا أبا عمرو!": قلتُها مُستيئساً، وتشاءمتُ من تلك السفارة.. حتى قبل أنْ تبدأ رحلتها.

لكن.. لستُ أنا الذي يحني ظهره ليطأه هذا المُختال العربيد بقدميه!؟ إذاً.. فلنرى ما تسفر عنه الأيام!!؟

مما عقَّد المسألة أنَّ ريطة تشبَّثتْ بوعدي لها –ولنساء النجاشي- باصطحابها، وطالبتني بالوفاء بعهدي؛ فاضطررتُ للوفاء بعهدها.

قضينا أسابيع نُجمِّع الهدايا الثمينة والمُحبَّبة للنجاشي وحاشيته، ونُجهِّز القافلة.. حتى تمَّ لنا ما نريد.

*****

انطلقتْ قافلتنا -مُفارِقةً مكة- إلى مرفأ الشعيبة، ومِن هناك استأجرنا سفينةً.. أبحرتْ بنا –في بحر القلزم- إلى الحبشة، لا جرم.. اصطحبتُ عمارة بن الوليد.. وأنا كارهٌ لصحبته.

عندما صعدنا إلى السفينة داهمني شعورٌ مريب بأنَّ هذا المخزومي الأشر سيُزعجني في رحلتي، وسيفسد عليَّ صحبتي لزوجتي؛ فمِن سوابقه.. أعلم أنَّه رجلٌ ماجنٌ مُعجَّبٌ بنفسه.. مُغرمٌ بالنساء، لا يتورَّع عن انتهاك الحرمات وهتك الأعراض.

خشيتُ منه على زوجتي؛ فاتفقتُ مع النُّوتيّ أنْ يُهيئ لها –في بطن السفينة- مخدعاً مستوراً تُقيم فيه.. فلا يدخل عليها أحدٌ غيري.

تَوَغَّلنا في عرض البحر، وكما كنتُ أُحاذِر.. ما برح عمارة يتلصَّص علينا كلما اختليتُ بزوجتي.. أو مكثتُ معها -في مخدعها- لتأنس بي بعض الوقت.

لبث –يسيراً- على تلك الحال، ثم قال لي -ذات مرة- مُتظاهِراً بالمودة والنصيحة:

- هل حملتَ زوجتك معك لتحبسها في بطن السفينة؟!! ادعها لتسمر معنا.. الليلة؛ فإنَّها ليلةٌ مقمرة!.

أعلم أنَّه مُتهتكٌ.. لا يُؤمن شَرُّه على النساء، غير أنّي أحببتُ لربطة أنْ تخرج مِن مخدعها الخانق، وتصعد إلى ظهر السفينة.. فتستمتع بنداوة الليل وهبات النسيم؛ فدعوتُها.. لتجلس معنا.

انزوينا –في جانبٍ من السفينة- بعيداً عن مخالطة البَحّارة، ثم أخرج عمارة –مِن متاعه- خمراً.. ولقد كان ذلك العربيد يحمل منه الكثير، ثم التمس

منها أنْ تسقينا؛ وأومأتُ إليها: أنْ افعلي، فجعلتْ تسكب له –باشمئزاز- في كأسه.. كلما فرغتْ.

حرصتُ ألّا أُكثر مِن الشراب كيلا تلعب الخمر برأسي.. خِيفة أنْ يعبث بي أو بزوجتي، ونبَّهتُها –هي أيضاً- إلى ذلك.

لبثنا نتنادم.. حتى انقضى الليلُ إلا قليلاً، وأثقل صاحبُنا الشرابَ.. حتى ثقلتْ رأسُه، وأثقل عليَّ بمزاحه السمج؛ راح يزدريني.. لامزاً قِصَر قامتي، بل.. وأثقل على ربطة.. وأنشأ يتبجَّح بمغازلتها أمامي.

كل هذا وأنا أتصبَّر عليه؛ إلا أنَّه تمادى في غَيِّه وتَهتُّكه.. ودنا منها قائلاً بخلاعةٍ صريحة: "قَبِّليني!!".

انتفضتْ ربطةُ مُتسِّخطةً.. مُبتعِدةً عنه، نهضتُ.. وحجزتُ بينهما مُعاتِباً بنبرةٍ لينة:

- يا فتى مخزوم! أ تقول هذا لابنة عمك؟!!

وكأنَّما استهان بي واستضعفني؛ فالتفت إليَّ هاتفاً بلسانٍ مخمور:

- قل لها: فلتقبِّلني.. أو لأضربنّك بسيفي!!؟

أذهلني استخفافه بي، وجمدتْ زوجتي في مكانها.. مُبهوتةً مِن تجرُّؤه ووقاحته؛ بيد أنّي تمالكتُ نفسي، ورغم دماء الحَمِيَّة الغاضبة التي تنتفض في عروقي.. أظهرتُ له هدوءاً بارداً، وأومأتُ إليها قائلاً بثباتٍ:

- قَبِّلي.. ابن عمك!

صَعَّر لها خَدَّه الأثيم.. مزهواً بنفسه، أقبلتْ إليه.. ترتجف أطرافها امتعاضاً، أغمضتْ عينيها الباكيتين خجلاً، وبشفاهٍ مُرتعشةٍ.. لثمتْ وجنته لثمةً خاطفة، وانسحبتْ –على استحياء- مُهرولةً.. لتهبط إلى مخدعها.

ازداد الفاجر طَمَعاً فيها، وقام يسعى وراءها؛ فأمسكتُه مِن كتفيه.. لأصرفه عنها؛ نزع نفسه مني بحركةٍ عنيفة.. عازماً على ملاحقتها، صددتُه.. وهتفتُ زاجراً:

- مَهْ.. أيها المخزومي! ألا تستحي؛ إنَّك.. سكران!!

دفعني في صدري.. وسبّني، و راح يقذف أمي.. ويُعيِّرني بأنّها كانت أمةً مملوكةً لعمه الفاكه، تلاحينا.. وارتفع تصاخُبنا حتى هرع إلينا البَحّارة، وفرَّقوا بيننا.

أسرعتُ ثائراً إلى مخدع ريطة.. ومِن وراء الباب صحتُ:

- أوصدي عليكِ بابكِ! لا تفتحيه.. ولا تخرجي حتى آذن لكِ!

وما انصرفتُ من وراء الباب حتى سمعتُها تُغلِّقه بالمزلاج، وكذلك.. سمعتُها تبكي وتولول: "أ يُصنَع بي هذا.. وأنا قرشيةٌ حرة؟!!".

انسحبتُ مِن أمام بابها.. بقلبٍ موجوع، أُحدِّثها في خاطري: **"كلا.. يا زوجتي الحبيبة! تالله.. لن تُفضَحي وبين جنبيّ قلبٌ ينبض! وعدٌ عليّ: لأقتصنَّ لكِ مِن هذا الشقي الذي أهانني.. وأراد فضيحتكِ!!"**.

على أنّي آثرتُ العقلَ والرَّوِيَّة؛ فهذا العربيد التافه أقل شأناً مِن أنْ يتناحر فيه البيتان القرشيان؛ فلأتربَّصنّ به حتى تواتيني فيه فرصة؛ فأفتك به.. وأنسلّ بريئاً مِن جريرته.. دون أنْ أُقحِم أبي وعشيرتي فيما لا يُطيقون!!

أعرضتُ مُبتعِداً عنه.. حتى تهدأ فورتي ويفيق من سكرته، تنحَّيتُ إلى جانب آخر من السفينة.. فجلستُ عنده.

لكنَّ النَذْل –**بعد حين**- غافل القومَ.. وباغتني ودفعني من ظهري؛ فسقطتُ مِن على السفينة في البحر، ارتطم جسدي بالأمواج، وغمرني الماء.. حتى

أحسستُ بالغرق؛ تداركتُ.. وأدركتُ نفسي، طفقتُ أشقُّ عُباب البحر.. سابحاً –نحو السفينة- بكلتا ذراعيّ ورجليّ، في غُبْشَة الليل –وفيما الماء المالح يلذع عينيي- لم أَعِ: أ قريبٌ أنا مِن السفينة.. أم بعيد؟؟

طفقتُ أُنادي صارخاً:

- أيها النُّوتِيّ! يا أهل السفينة.. أدركوني! إنّي أغرق في البحر!!

مِن حَظّي الغير عاثر.. أنْ جاء أحدُ البَحّارة يحمل مصباحاً ينظر به في الماء.. كأنَّما سمع صوتي، أخذتُ –وأنا أُكابد الأمواج- أُلوِّح له بيدي.. وأُناديه مُستَصرِخاً:

- أيها البَحّار.. أنا هنا!!

إلى أنْ انتبه ليّ.. وأبصرني، أَلْقى إليّ بحبلٍ غليظ.. تناولتُه وتشبَّثتُ به، أتى بَحّارٌ ثانٍ.. وشرعا يسحبان الحبل إلى أنْ التقطاني، صعدتُ إلى السفينة.. وجسدي ينتفض مِن الهلع ومُدافعة الأمواج.

ربما فطن الخبيثُ إليهما وهما ينتشلاني، أتى إلينا –وما برح يتجرع كأس خمره- ضاحكاً مُنتشياً، رمقتُه مُعاتِباً.. فهتف مُقهقهاً في صفاقة:

- أما والله.. لو علمتُ أنّك سابحٌ ما طرحتُك؛ ولكنّني كنتُ أظُنّ أنَّك لا تحسن السباحة!!

أسررتُها في نفسي.. كاظماً غيظي أمام القوم، وتظاهرتُ بأنّنا كنّا نتمازح.. هاتفاً:

- ويحك يا ابن العم! أ هكذا يكون المزاح؟!!

ثم إنَّهم أدخلوني إلى مخدع زوجتي!

فزعتْ ريطةُ حينما أبصرتني: حاسر الرأس –فقد فقدتُ عمامتي في الماء- ثائر الشعر واللحية.. مُخضَّل بالماء.. مُبتَلّ الثياب.. مُرتجِف الأطراف.. جاحظ العينين، صاحتْ باضطراب وارتياع:

- يا ويلي!! ماذا أصابك.. فداك نفسي؟!!

قعدتُ.. وقد أصابني الإعياء؛ فارتمتْ –مذعورةً- تبكي عند قدمي، أشرتُ إليها: أنْ سكِّني جزعكِ؛ فما هدأتْ.. حتى اطمأنتْ أنَّي ليس بي بأس.

ثم تمالكتْ نفسها.. وشرعتْ تساعدني في تجفيف جسمي وتبديل ثيابي المبتلة.

التزمتُ الصمت؛ آلام كبريائي المهان أشدّ عليّ مِن آلام جسدي!؟

شُقَّ عليَّ أنْ يطمع ذلك الأثيم في امرأتي، وأنْ يُحقِّر من شأني أمامها، وأنْ يمتهن أمي.. ويُعيِّرني بسيرتها الأولى، ثم ها هو ذا يتعمَّد قَتْلي.. ولا يُبالي؛ إنَّه يَدِلُّ عليّ بمال أبيه ونسبه.. وسطوة عشيرته؛ وإنَّه لأحقر -في عيني- مِن بعوضة!!

ارتعبتْ ريطةُ عندما انتفضتُ –وأنا أناجي دخيلةَ نفسي- ثم أهمس مُغتاظاً:

- يحسب نفسه فاتكاً.. ويزدريني؟! تالله.. لإنْ صارعني لصرعتُه، ولإنْ خرجتُ إليه.. لأقتلنَّه بسيفه، ولتصنع –بعدها- مخزوم ما تصنع!!

تشبَّثتْ بي بكل جوارحها.. ومضتْ تَنُوح:

- يا ويلتي! يا ليت أمي لم تلدني! أنا التي جلبتُ لك المتاعب.. يا حبيبي! ليتني.. ما رافقتُك في هذه الرحلة المشؤومة!!

لبثتُ –حيناً- مذهولاً.. مُنشغِلاً عنها في خطراتي؛ فنبَّهني بكاؤها لوجودها بجواري.. وإلى هلعها وارتياعها؛ أشفقتُ عليها.. وساءني أنْ أرى دموع الفزع

في عينيها، التقطتُها في أحضاني.. وترفَّقتُ معها؛ ولم أزل بها.. حتى سكَّنتُ جزعها، ثم دهمنا النعاس.. ونحن على تلك الحال.

رغم الليلة الطويلة العصيبة.. استيقظتُ مُبكراً؛ فألفيتُها مُتعلِّقةً بعنقي وهي نائمة، نبَّهتُها.. فنهضتْ مفزوعةً مضطربة، هتفتْ مُتوسِّلة:

- بالله.. يا عمرو! لا تخرج لهذا الفاجر؛ إنّي أعلم أنَّك لو رأيتَه.. لقتلتَه! وبنو مخزوم –حينئذ- لن يتركوك تمشي على الأرض!؟

ثم أردفتْ باكية:

- بؤساً لي!! قد أوردتُ زوجي وأبي وعشيرتي.. المهالكَ!!؟

هدَّأتُها.. قائلاً في تلطُّفٍ:

- لا ترتاعي -يا **زوجتي العزيزة**- ولا تحزني! لا تثريب عليك فيما جرى؛ إنَّما أراد هذا الغَدُور إهانتي أنا والفتك بي؛ ولن أدعه يسلم بها!!
- ماذا ستفعل.. يا عمرو؟!! رحماك بقومك –بني سهم- أنْ يُقاتلهم بنو مخزوم حميَّةً لهذا السِّكِّير!؟؟
- لا تجزعي.. يا ريطة!! فإنَّ زوجكِ رجلٌ يسبق حلمُه جهلَه.. ويسبق رشدُه غضبَه! وإنَّما لكل حادثٍ أوانه؛ وليس هذا أوان الثأر والقصاص.. الذي لا محيص عنه، لكنَّه أوان النهوض بالوظيفة التي وكَّلتني بها قريش، والتي كاد هذا التافه يُفسدها بأفعاله الرعناء.. قبل أنْ تبدأ!!

زفرتُ حانقاً.. ثم استطردتُ:

- لكن -ورأس أبي- لأنتقمنّ منه، ولأَحُوكنَّ له أَخِيَّة لا ينفك منها أبدا؛ ودون أنْ يُضام فيه العاص بن وائل.. أو سهمي واحد!!؟

انقضى نهارٌ كاملٌ.. لم أرَ فيه وجهه الذميم، ثم خرجتُ –مساءً- مِن مخدع ريطة.. بعد أنْ عاهدتُها أنْ أُرجئ انتقامي حتى أُنهي مُهِمَّتي لدى النجاشي، وأنّي سأحتال لأفعلها –حين أفعلها- دونما أُورِّط أبي أو قومي مع بني مخزوم. أمرتُها –كارهاً- أنْ تنحبس في مخدعها.. حتى نهبط إلى اليابسة، ثم صعدتُ إلى ظهر السفينة، رأيتُه –مِن بعيد- يأتي إليَّ مُتثاقِلاً.. لم أمشِ إليه حتى دنا مني، ابتسم ابتسامةً –هي أقرب للشماتة مِن الاعتذار- وتنحنح.. ثم قال:

- تباً للخمر!! لا تزال بمُتعاطيها.. حتى تُخرِج الكَيِّس عن رشده!!

أجبتُه بلهجةٍ جافة:

- كيف تتعاطاها.. وقد حَرَّمها أبوك الوليد على نفسه.. وعليكم؟؟!

أجاب بلهجةٍ طفولية عابثة:

- إنّي أشربها مِن وراء ظهره، ولو عَلِم.. لوبَّخني عليها.. ولمنعني عطاءه حتى أدعها!!

ثم استطرد بإصرارٍ وقح:

- وإنّي لن أدعها؛ فحَذار –يا ابن العاص- أنْ تُعلِم بها أبي أو أحداً مِن إخوتي!!؟

أومأتُ: ألّا تخشَ مِني، وقلتُ مُتظاهراً بالود:

- أنا لا أخون خليلي.. ولا أفضح له سِرّاً!

هتف مُتسائلاً بارتياح:

- نحن خليلان.. إذاً؟؟!

- لا شك في هذا! أنت فتى مخزوم.. وأنهد فتىً في قريش، ويسرّني أنْ نكون صديقين؛ وما حدث البارحة.. لا يعدو –عندي- أنْ يكون مزاحاً بين الأخِلاّء!!

ابتسم.. وهتف مُنشرِحاً:

- يُسعدني أنْ تقول هذا! وإنّي أشهد لك أنّك رجلٌ كيسٌ حليم!

ثم استطرد بنبرةٍ أكثر جدية:

- وما أَوَدّه منك هو أنْ تقدِّمني بين يدي النجاشي.. وتقرِّبني منه ومن حاشيته!

ثم أردف بلا مبالاة:

- هذا مُبتغَى الوليد بن المغيرة المخزومي!!؟

- اطمئن.. يا فتى مخزوم! لأُقدمنّك بين يديه.. حتى تكون أدنى العرب منزلةً عنده!

ما برح يلاطفني ويحادثني.. ويُثرثر ويَقُصّ عليَّ مُغامراته الماجنة مع النساء؛ ظانّاً أنَّه بذلك قد يُنسِّيني إهانته لي وطمعه في امرأتي أمام عيني؛ هيهات!!؟ على أنّي أبديتُ التجاوب معه، تصافحنا من جديد.. وأَوْهمتُه أنّني تناسيتُ تلك الحادثة، واعتبرتُها: ذلة سكران!

فيما بقي من الرحلة.. تكرَّرتْ جلساتُ تنادُمنا.. وتطاولتْ حواراتُ تسامُرنا، استمرَّ في التودُّد إليّ، واستمررتُ في مخادعته، وتظاهرتُ –أمامه- بالإعجاب به وبجرأته.. ومهارته في إغواء النساء!؟

بيد أنّي لم أكن لأنسى الإهانة، وما كنتُ لأعفو عن محاولته قتلي لمّا قذفني في البحر، كنتُ استمع لنوادر فجوره بلسانٍ يلفظ المدح.. وقلبٍ يُضمر الضَغَن، كنتُ أُنادمه.. مُحاذِراً؛ فأخلط شرابي بالماء كيلا تُغيِّب الخمر عقلي، وبينما يُغيِّب السُكْرُ عقلَه في الأحلام؛ كانت رغبة الانتقام تُغيِّب عقلي بحثاً عن مكيدةٍ أثأر بها لكبريائي دونما يُدنَّس ثوبي بدمه.

حدَّثتني نفسي أنْ أُغري به ملاحي السفينة.. ثم نطوّحه في البحر غريقاً،ثم أقول لأهله: "لم أعلم عنه شيئا!!"؛ غير أنّي استقبحتُ الفكرة؛ فإنّ أباه وبني مخزوم سيحمِّلونني جريرته؛ فتصبَّرتُ إلى حين.

*****

رستْ السفينة على شاطيء الحبشة؛ فانتهتْ الرحلة البحرية.. وبدأنا رحلةً برية في أرض الحبشة حتى نصل إلى قصر النجاشي.

في أرض الحبشة.. عَلِم الأحمقُ أنَّه أحوَج ما يكون لي؛ في أرضٍ ليستْ بأرضه.. وبين قومٍ ليسوا بقومه.. يتكلَّمون لغةً ليستْ بلغته؛ فازداد تقرُّباً إليّ.. وتباعُداً عن الطمع في امرأتي.

حدَّثتني نفسي أنْ أُحَرِّض عليه بعض مُشاغِبي السوق ليفتكوا به، ثم صَرفتُ عقلي عن تلك الفكرة؛ فإنَّ بني مخزوم سيرتابون فيّ.. وسيقولون لائمين: "لِمَ لَمْ تدافع عن ابن عمك؟! لِمَ لَمْ تَمُتْ معه؟؟!".

بَلَغَنا مشارف (أكسوم)؛ مدينة جميلة.. تقع في سفح جبل شاهق، وهي قصبة الحبشة.. التي فيها قصر النجاشي ومقر حكمه، وكذا.. فيها كنيستهم المقدسة.. كما أخبرتكم آنفاً.

تَوَجَّهتُ –في البداية- إلى بعض أصدقائي مِن العوام، وصلتُهم بهدايا مُفرِحة، رحَّبوا بنا.. وأكرموا وفادتنا.

لبثنا عندهم أياماً.. لا ندلف إلى القصر؛ وذاك الأرعن يُلحّ عليّ في الولوج إلى القصر ومقابلة المَلِك، كنتُ أُصبِّره هامساً:

- تمهَّل –يا رجل- لنتبيَّن خبر أولئك الصباة قبل أنْ نلج إلى المَلِك، ثم نتحيَّن فرصةً سانحة.. نتقرَّب –فيها- إليه بالهدايا النفيسة؛ فيجيب حاجتنا فيهم!

وذيَّلتُ كلامي ناصحاً:

- ينبغي أنْ تُحسن الدخول على الملوك.. وأنْ تجمل في الطلب.. حتى يُجيبوك إلى مسألتك!!

هَزَّ كتفيه.. غير عابئ لنصيحتي.

تَطلَّعتُ أخبارَ الصباة؛ فعلمتُ مِن بعض أصفيائي أنَّهم يقيمون في قريةٍ قريبة اسمها: (نجاش)؛ وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، لكنَّهم لم يتَّصلوا بالنجاشي.. ولم يعرف بخبرهم.

شَمَّرتُ عن ساعد الجدّ، وقرَّرتُ أنْ أدلف إلى القصر؛ وأزمعتُ –قبل أنْ استأذن في لقاء النجاشي- أنْ أعرِّج على بعض الذين أعرفهم مِن البطارقة، وأنْ أُغدق عليهم بالهدايا الثمينة، وأُكلِّمهم فيما جئتُ به.. كي يُؤيّدوني لدى

المَلِك، وقد فعلتُ.. ووعدوني خيراً.. حتى أيقنتُ أنَّ حاجتي مقضية، وأنّي عائدٌ إلى مكة.. وبين يديي الصباة مصفدين في الأغلال.. لا محالة.

ثم استأذنتُ في دخول القصر.. ومقابلة النجاشي؛ ولبثنا أياماً ننتظر الإذن؛ في تلك الأثناء.. لم أنفك عن التفكير في الثأر الذي أرجأتُه: كيف أكيل لهذا المخزومي الأَشِر بصاعه صاعين؟؟!
حدَّثتني نفسي أنْ أرمي به مِن فوق سور الكنيسة السامِق، ثم أقول لأبيه وقومه: "وقع مِن فوق السور؛ فاندق عنقه!"، لكنَّهم لن يُصدِّقوني؛ حبَّذتُ أنْ أتريَّث حتى تواتيني فرصةٌ أفضل.

ثم جاءنا الإذن بالولوج إلى القصر، فدخلنا مُرحَّباً بنا.. حيث أتاني نفرٌ مِن حاشية المَلِك الذين أعرفهم.. ويُوَادّونني؛ استقبلونا بما نحن أهله؛ فأنزلوا زوجتي في ضيافة نساء القصر، وأنزلونا في نُزُلٍ يليق بأمثالنا، بادلتُهم ودّاً بودٍّ.. ومنحتُهم هدايا سخية، ثم أوحيتُ إلى ذاك المخزومي بأنَّهم ذوو جاهٍ لدى المَلِك.. وزيَّنتُ له التقرُّب إليهم، والتمستُ منهم أنْ يُحسنوا معاملته.
ثم مكثنا نتحيَّن السماح لنا بلقاء النجاشي.

خلال تَرقُّبنا للقاء المَلِك.. حدَّثتني نفسي أنْ أستميل أحد الغلمان.. وأحثُّه على دَسِّ السمِّ الزُعاف في شراب ذاك المخزومي الأثيم؛ راقتْني الفكرة.. وشرعتُ في تنفيذها؛ طفقتُ أمدح –أمامه- خمر الحبشة ومذاقها.. وحبَّبتُ إليه الاستكثار من شرابها، بيد أنّي تراجعتُ قبل أنْ ندسّ له السمّ.. مخافة سوء العاقبة؛ جريمةٌ –كهذه- لو تمتْ في قصر النجاشي.. إنَّها فضيحة!!

ثم أُذِن لنا بالمثول بين يديي المَلِك، دخلنا البلاط مُطأطئين الأرؤس، ثم سجدنا للمَلِك؛ أطلنا السجود.. إلى أنْ أُمرنا برفع رءوسنا.

تبسَّم لي.. ورحَّب بي وأدناني من مجلسه، ثم أُذِن لي بالكلام؛ فجعلتُ أمدح المَلِك وأُثني على كريم خصاله.. حتى اغتبط وقال:

- يا عمرو! سَمِّ حاجتك!!

هتفتُ بتَبْجِيل:

- حاجتي أنْ يرضى عني المَلِك.. ويتفضَّل عليَّ.. ويقبل مني هديةً متواضعة.. لا تليق بمقامه!!

ثم استعرضوا الهدايا التي استحسنها النجاشي؛ وأمر بقبولها.. ثم قال لي:

- يا عمرو! سَلْ.. تُعطَ!!؟

قلتُ بصوتٍ خاشع:

- يا مولاي! شرذمةٌ مِن بني جلدتنا بغوا علينا، ثم هربوا مِنّا والتجؤوا إلى بلادكم.. يحسبون أنَّكم ترضون بإيواء البغاة في بلادكم!

أجاب آمراً جنوده باقتضابٍ:

- ائتوني بهم، ثم سلِّموهم إلى عمرو!

تبسَّمتُ شاكراً كرمه.. وسرعة إجابته لبغيتي، وفركتُ يديي سروراً.. أنْ تمت سفارتي بنجاح.

في غضون تلك المدة.. كنّا نقيم في القصر كأعزّ ضيف، وكنتُ أختلف إلى زوجتي فألتقي بها، وأُعطيها هباتٍ إضافية.. لتهديها إلى النساء اللاتي

يستضفنها، بينما ذاك المخزومي ينسلّ –مِراراً- مِن مَقَرِّ إقامتنا.. ولا أعلم أين يغيب!؟؟

وقد واتتني فيه خطةٌ.. ظننتُ أنَّها خير خطةً للثأر والانتقام؛ فكَّرتُ أنْ أَتَوَصَّل إلى إحدى ساحرات الحبشة.. واستحثّها فتسحره سحراً بطيئاً.. يُهلكه بعد أَمَد؛ فلا أُتَّهَم فيه، رضيتُ الفكرةَ، وأزمعتُ العمل بها.. بعد إنهاء مُهِمَّتي لدى النجاشي.

ذات ليلة.. دعانا النجاشي إلى مجلس سمره؛ فقلتُ للمخزومي:

- هذه فرصتك للتقرُّب إلى النجاشي؛ فلا تُفوِّتها!

غير أنّ الأهوج خرج مِن عندي.. ولم يرجع، اضطررتُ إلى حضور سامر النجاشي بدونه، لم يفتقده المَلِك؛ إنَّما سأل عنه سؤالاً عابراً؛ فاعتذرتُ عنه بأنَّه مُتوعِّك.. ولا يستطع مفارقة فراشه.

ثم أخبرني النجاشي: أنّي سوف أتسلَّم الصباةَ.. غداً.

قضيتُ ليلةً سامرةً بهيجة.. في ضيافة النجاشي، ثم انكفأتُ إلى منزلنا.. لأتدبَّر مع المخزومي: الترتيبات الواجبة علينا –باكراً- بعدما نظفر بأولئك الصباة الملاعين.. حتى نحكم قبضتنا عليهم.

على أنّي لم أجد لذلك العابث أثراً، انتابني القلق والريب.. وتساءلتُ مستاءً: ويح أمه! أين يختفي هذا الفاسق كل هذا الوقت؟!! كيف يتخلَّى عن مسامرة المَلِك حين يدعوه إليها؟!!

تـالله.. إنَّـه لـعابثٌ!! حَمَّلتنـا قـريشُ أمانـةً.. ويـأبى هـذا السـفيه أنْ يحملهـا!؟؟ أراد لـه أبـوه أنْ يكـون مِـن ذوي الشـرف والأحسـاب.. ومِمَـن يـدخلون عـلى الملوك؛ ويقنع هو بالعبث وتوافِه الأمور؛ يا حسرتي.. على مخزوم!!

ثم غشـيني الماجنُ –آخر الليل- مُغتبِطاً مُنتشِـياً.. لـيهمس في أُذني بـفمٍ تفـوح منه ريح الخمر: أنَّه كان يَدِبّ إلى امرأةٍ مِن نسـاء المَلِك؛ ثم راح يَقُصّ عليّ ما وقع بينهما، تساءلتُ مُتعجِّباً:

- كيف.. وأنت لا تتكلَّم بلسان قومها؟!!

ضحك ببذاءة.. قائلاً:

- وهل أحتاج إلى محادثتها بلسان قومها؛ وإنَّها تتكلَّم بشيءٍ مِن كلام العرب!

ثم استسلم للنوم.. وخلَّفني أتفكَّر في رَزِيَّته:

عجباً لك.. أيها الداعر! لو أنَّك تعلم مَغَبَّة ما تفعل؟!

وأيم الله.. سيُفسد علينا سِفارتنا، بل.. قد يُعرِّضنا لنقمة النجاشي؛ فنهلك.. ونخسر كل شيءٍ! تباً له.. ولِمَن أرسله معي!!؟

تملَّكتني حيرةٌ عنيفة، وانصرم الليل.. وأنا عاجزٌ أنْ أُفكر: كيف أعالج تلك البَلْوَى؟!! انفلق الصبح.. ودهمني نهارٌ فاضح؛ ثم دُعينا إلى بلاط النجاشي. سجدنا بين يديه، ثم قرَّبنا منه.. حتى أجلسني عن يمينه.. وأجلس المخزومي عن شماله؛ فاستبشرتُ بحُسن استقباله لنا.

ثم أومأ إليّ أنْ أنطلق مع جنوده.. لأتسلَّم الصباة، لكن.. قبل أنْ أنهض من المجلس سمعنا صوتاً بالباب.. يُنادي:

- أيها الملك! يستأذن عليك.. حزبُ **الله**!!

انتبه النجاشي لدعاء المنادي.. فقال:

- مُرُوا هذا الصائح.. فليعد كلامه!

فأعاد كلامه؛ فقال النجاشي:

- نعم! فليدخلوا.. بإذن **الله** وذمته!

فدخل نفرٌ.. تأمَّلتُهم؛ فإذا هم: **(جعفر بن أبي طالب)**.. ورجالٌ مِن الصباة **(لم أَرَفهم أخي: هشام)**، أسرعتُ.. قائلاً للنجاشي:

- أعزّك الله.. يا مولاي! إنَّهم البغاة الذين أريد؛ فادفعهم.. إليَّ!!؟

أجابني في حزم:

- مَهْلاً.. يا عمرو.. حتى أسمع منهم؛ فقد زعموا أنَّهم حزب الله!!

وقفوا بين يديه.. ولم يسجدوا له؛ فأحببتُ أنْ أُخيفهم.. وأنْ أُوغر صدرَه عليهم قبل أنْ يستمع إليهم؛ فهتفتُ فيهم.. مُستقبِحاً:

- ألا تسجدوا لجلالة المَلِك!؟

بيد أنَّهم لم يجيبوني.. ولم يحرّكوا ساكناً!!

خاطبهم النجاشي مُتسائلاً باستغرابٍ:

- ما منعكم أنْ تسجدوا لي.. كما يسجد الناس؟!!

تقدَّم جعفر خطوتين.. ثم قال بثبات:

- إنَّما نسجد لله –**الذي خلقنا**- وحده!!

ثم استطرد –**فيما لاحظتُ أنَّ النجاشي بدأ يُنصت له باهتمام**- بلغةٍ فصيحة:

- وإنَّما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان؛ فبعث الله فينا نبياً صادقاً، وأمرنا بالتحية التي رضيها الله.. وهي: السلام.. تحية أهل الجنة!

التفتُ إلى النجاشي.. فكأنَّه استطاب كلامه، وقال مُتلطِّفاً:

- أَيُّكم الهاتف.. يستأذن؟؟

انبرى جعفر.. هاتفاً: "أنا!!"؛ فأشار إليه: أنْ تكلَّم؛ فقال الصابئ:

- إنَّك مَلِكٌ.. لا يصلح عندك كثرة الكلام.. ولا الظلم! وأنا أُحب أنْ أُجيب عن أصحابي هؤلاء! (مشيراً إلى أصحابه الذين معه)، ثم أردف: "فأمُرْ هذين الرجلين –مُشيراً إليّ وإلى صاحبي- فليتكلَّم أحدهما؛ فتسمع محاورتنا!!".

هَزَّ النجاشي رأسه موافقاً، وأومأ إليَّ.. مُبيحاً لنا أنْ نتحاور في حضرته؛ فما وجدتُ محيصاً مِن محاورته، اعتدلتُ.. وقلتُ له بتحفُّز: "تكلَّم.. أنت!!؟".

فخاطب النجاشي قائلاً:

- أيها المَلِك! سَلْه: أ عبيدٌ نحن.. أم أحرار؟ فإنْ كنّا عبيداً أبقنا مِن أربابنا؛ فارددنا إليهم!

التفتَ إليّ النجاشي مُستخبِراً؛ فما استطعتُ أنْ أكذب على المَلِك، قلتُ:

- بل.. أحرارٌ كرام!!

فاستأنف:

- هل أهرقنا دماً بغير حقٍ؛ فيُقتصّ منّا؟؟

ومرة ثانية أجبتُ صادقاً:

- كلا!! ولا قطرة!!

فاستأنف:

- هل أخذنا أموالَ الناس بغير حقٍ؛ فعلينا قضاؤها؟

- ولا .. قيراط!!

آنئذ.. سألني النجاشي بلهجةٍ صارمة:

- فلِمَ تطلبونهم؟!!

فأجبتُه غير مُتلعثِمٍ:

- كنّا نحن وهم على أمرٍ واحدٍ.. على دين آبائنا؛ فتركوا ذلك.. واتَّبعوا غيره!؟؟

تَوَجَّه إلى جعفر سائلاً:

- ما هذا الذي كنتم عليه؟ وما الذي اتَّبعتموه؟ قُلْ.. و اصدقني!!

فانبعث.. يجيب بثقةٍ واطمئنانٍ.. عجبتُ لهما:

- أَمّا الذي كنّا عليه.. فتركناه؛ فهو دين الشيطان: كنّا نكفر بالله.. ونعبد الحجارة! وأَمّا الذي تَحوَّلنا إليه؛ فدين الله.. الإسلام: جاءنا به -من الله- رسولٌ.. وكتابٌ مثل كتاب ابن مريم موافقاً له!

قاطعه النجاشي.. هاتفاً بجِدّيَّة:

- تكلَّمتَ بأمرٍ عظيم؛ فعلى رِسْلِك!!

ثم أمر بضرب الناقوس؛ فاجتمع إليه قساوسةٌ ورهبان، ثم قال لهم:

- أنشدكم الله.. الذي أنزل الإنجيل على عيسى! هل بين عيسى وبين يوم القيامة.. نبيٌ؟!

قالوا:

- اللهم.. نعم!!

فعاد يسأل جعفر:

- ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به.. وما ينهاكم عنه؟!
- يقرأ علينا كتاب الله.. ويأمرنا بالمعروف.. وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار.. وصلة الرحم.. وبر اليتيم، ويأمرنا بأنْ نعبد الله وحده.. لا شريك له!!

ثم إنَّ النجاشي قال باهتمامٍ شديد:

- اقرأ لنا.. مما يقرأ عليكم!

فأنطلق الهاشمي الصابئ.. يقرأ على النجاشي قرآن ابن عمه، وبينما يقرأ.. رمقتُ المَلِكَ خلسةً **(وإنّي أعلم أنَّه يفهم العربية جيداً)**؛ فأبصرتُه يُصغي إليه بخشوع.. وقد بدا على قسمات وجهه التأثُّر بما يسمع، ثم أضاف جعفر:

- فأراد قومنا أنْ يفتنونا.. عن ديننا؛ قهرونا وضيَّقوا علينا.. ليردّونا إلى عبادة الأوثان؛ فخرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سِوَاك.. ورغبنا في جوارك، ورَجَونا أنْ لا نُظلَم عندك.. أيها المَلِك!!

هنالك.. سُقِط في يدي.. وأيقنتُ أنّي خسرتُ المناظرة.. وفاز بها جعفر؛ بل.. وفاز بقلب النجاشي!!

ثم سكت جعفر.. وأطرق النجاشي، وران السكون على البهو؛ فما قدرتُ أنْ أَنْبِس بكلمة، ثم رأى النجاشي أنْ يصرفهم مكرمين، ثم قال لي حاسماً:

- مَهْ.. يا عمرو! هم آمنون.. في جواري!

ثم أعرض عني.

*****

انكفأتُ –مُحبَطاً مُتكدِّراً- إلى مَقَرِّ إقامتي، وفي ذيلي.. ذاك المخزومي العابث يتساءل بلا مبالاة:

- ماذا سنفعل الحين.. يا ابن العاص؟!!

لم أُجبه.. وصرفتُ وجهي عنه.. كابحاً حنقي واشمئزازي، وأنا لا أرتاب في أنَّ وجهه المشؤوم هو سبب إخفاقي في وظيفتي!!

قضيتُ ليلةً عصيبة.. أَرِقتُ فيها -وجافى النوم جفوني- حسرةً وتغيُّظاً لفشل سفارتي، أسمع غطيط ذلك الشقي؛ فأميل بوجهي إليه.. لأجِده يَغِطّ في سباتٍ وغفلة؛ أزداد حقداً عليه.. وبغضاً لصحبته، وأتساءل في خاطري ناقماً: **هل أرجع خاوي الوفاض؟!! لا بُغْيةَ قريش.. حصَّلتُ، ولا ثأري.. أدركتُ!!؟**

ثم تَوَهَّجتْ في ذهني فكرةٌ؛ ارتضيتُها.. مُحدِّثاً نفسي بعزمٍ: وأيم الله.. هو الذي يجني على نفسه الجنايات؛ قد طوَّعتْ له نفسه الدنيئة الاستخفاف بي والسعى إلى قتلي، وكذا.. طوَّعتْ له الخيانةَ وانتهاكَ الحرمات؛ ينصب الشَرَكَ لأهل المَلِك الذي أحسن وفادتنا.. غير مبالٍ به ولا بسفارتنا عنده؟!! إذاً.. لأُوقعنّ به في شِراكه.. دون أنْ تطرف لي عين!!

أصبحتُ.. وقد ضاعف السهادُ عبوسي، وأصبح هو يتثاءب.. ويفرك عينيه من النوم، ثم يعاود السؤال بسذاجة:

- ماذا سنفعل –الآن- يا ابن العاص؟؟!

اختمرتْ خطة الانتقام في رأسي، تمالكتُ نفسي.. وحاولتُ تبديل العبوس تبسُّماً، قلتُ:

- ينبغي ألا نرجع إلى قريش خائبين! يجب أنْ يتراجع النجاشي عن رأيه.. ويمنحنا أكتاف أولئك الصباة!!؟

تساءل.. بحيرةٍ ظاهرة:

- لكن.. كيف هذا.. يا عمرو؟!!

أجبتُه.. بإطراء:

- حَلُّها عندك.. يا أنهد فتيان قريش!!

حَدَّق فيّ مُتعجِّباً.. فأردفتُ مُخافِتاً:

- أولاً.. أخبرني عن تلك المرأة التي نِلتَ منها؛ أ واثقٌ أنت.. أنَّها امرأةٌ مِن أهل المَلِك؟؟!

حدجني بارتيابٍ.. هاتفاً:

- وما شأن هذه.. بما نحن فيه؟!!

همستُ.. مُؤنِّباً في حذر:

- اخفض صوتك.. يا رجل! إنَّا غرباء في هذا القصر؛ ولستُ أَثِق في هذه الجدران أنَّها تتجسَّس على حديثنا!!

خفض صوته.. قائلاً بشيءٍ مِن الصدود:

- أفصح عمّا تقول.. يا سهمي!؟؟

أجبتُ مُشكِّكاً.. لكن بصوتٍ هادئ:

- أخشى أنَّها ليستْ مِن نساء المَلِك؛ بل تكون خادمةً -مِن خادمات القصر- تُخادعك.. لأنَّك ضيفٌ غريب!؟؟

قال بلهجة تَحَدّي وثقة:

- بل.. هي امرأةٌ مِن نساء المَلِك؛ لا أشك في هذا!!

وأردف مؤكِّداً:

- إنّي ذو فراسة.. وعليمٌ بالنساء؛ عرفتُها امرأةً مُرفَّهةً.. ذات ترفٍ ورغد!!

ثم ذيَّل كلامه مُستبعِداً:

- فكيف لا تكون مِن نساء المِلَك؟!!

التقطتُ طرف الكلام هامساً بعزم:

- إذا كانت كما تقول؛ فعسى أنْ تساعدنا.. وننال بشفاعتها حاجتنا لدى المَلِك!!؟

تبدَّلتْ ملامح وجهه إلى الجدِّيَّة، وراح يتفكَّر برهة.. ثم قال مُخافِتاً:

- كيف.. يا عمرو؟! كلامي معها أغلبه بالإشارة، ولم يكن في غير الحب.. وما يقع بين الرجل والمرأة!!؟ وتعلم أنّي لا أُحسن لغة الحبشة!؟

أسررتُ في أُذنه:

- ينبغي –أولاً- أنْ تتأكَّد أنّها امرأة الملك.. حقاً، وأنَّها لا تُخادِعك؛ وبعدها.. دع مخاطبتها لي؛ فسأُعلمك كيف تلتمس منها أنْ تشفع لنا عنده في حاجتنا!!

أجاب بصلفٍ:

- لك هذا! ولكن.. كيف أتأكَّد مِنها؟؟!

همستُ بصوتٍ أكثر خفوتاً.. وأشدّ تشجيعاً:

- سلها أنْ تدهنك بطيب النجاشي الذي لا يتطيَّب به سِواه.. فإنّي أعرفه!! فإذا جاءتك به.. فهي امرأةٌ من نسائه؛ وإلا فهي غير ذلك.. وقد خدعتك!؟

ما لبث أنْ طرقني آخر الليل.. تفوح من رأسه رائحة الطيب؛ شممتُه.. وابتسمتُ فَرِحاً:

- هذا.. هو!! وربك.. إنّه عطر المَلِك؛ قد صَدَقتك المرأة!

ابتسم مزهواً.. ثم سَلَّ مِن طيات ثيابه قارورةً.. بها شيءٌ من ذاك الدهن، ناولنيها.. وهو يهمس مُفاخِراً:

- خُذْ هذه.. لتزداد يقيناً!!

أجبتُ مادحاً مُندهِشاً:

- مرحى.. يا فتى مخزوم!! لقد أصبتَ شيئاً.. ما أصاب أحدٌ -من **العرب**- مثله قط؛ ونلتَ مِن امرأة الملك شيئاً.. ما سمعنا بمثله قط!!

ثم.. أردفتُ:

- أمهلني بعض يومٍ.. قبل أنْ تلقاها؛ وسأُخبرك: كيف تلتمس منها أنْ تشفع لنا!!

قال بغرور وزهو:

- لك.. ما تشاء!!

ثم استرخى في فراشه.. مُعجَباً بنفسه؛ يظن –بغبائه- أنَّ هذا.. فضلٌ يُحسَب له.. ويسبق به أمثاله مِن شباب مكة المعربدين!

خلَّفتُه يتخبَّط في غروره.. وفي غفلته، واستأذنتُ في الدخول على النجاشي؛ فأُذِن لي، سألتُه الانفراد به.. لأُكلِّمه في أمرٍ خطير؛ ثم قلتُ.. هامساً:

- أيها الملك!! إنَّ معي سفيهاً مِن سفهاء قريش، و قد خشيتُ أنْ يَعُرَّني عندك أمرُه، وأردتُ أنْ أُعلِمك بشأنه: إنَّ صاحبي هذا أرسل إلى امرأةٍ مِن نساء المَلِك.. حتى أطمعتْه في نفسها، وبعثتْ إليه بطيبٍ مِن طيب الملك!!؟

ولمَّا شَمَّ النجاشي الدهن.. عرفه؛ وعلم أنّي صادقٌ فيما أخبرتُه!!؟

لن أذكر: كيف كان غضبه، ولا كيف طردني مِن مجلسه؛ لكم أنْ تتوقَّعوا هَوْل الموقف.

انثنيتُ إلى نُزُل إقامتي.. وتربَّصتُ بما سيكون، وما عَتَّم جنودُ المَلِك أنْ داهمونا.. يضربون الأرضَ بأرجلهم وحرابهم ضرباً مُفزِعاً، اقتحموا مخدعه، انتزعوه مِن فراشه.. وهو مذهولٌ.. لا يَعِي ما يجري له، صفَّدوه في الحديد، وانطلقوا به.. لا أدري إلى أين؟!!

رفتْ على شفتي بسمةٌ خفيفة؛ ولم أره.. بعدها أبداً.

احتبستُ.. أترقَّب ما سيصير إليه أمري!؟ وبعد يومٍ أو يومين.. زارني أحدُ خواص المَلِك المخلصين لي.. قائلاً: "يا عمرو! قد أَوْدى النجاشي بصاحبك القرشي، وأمر برَدِّ هداياكم!!"، ثم استطرد: "وإنّي أنصحك: خُذْ ما رَدَّه المَلِك، واحمل امرأتك، وبادر بالرحيل.. قبل أنْ تصيبك غضبةُ النجاشي!!".

شكرتُه.. واصطحبتُ ريطة.. وارتحلنا.

****

-الفصل الرابع-

أنزلنا بلاد الحبشة.. وبلاده.. آيبين إلى مكة؛ خلال رحلة العودة.. لم تسألني ريطة عن المخزومي الوقح قط، لكن.. بعد أنْ صعدنا السفينة.. وشقَّتْ البحرَ بصدرها القوي الشجاع.. وتكسَّرت أمواجه تحت أقدامها، وغُيِّبتْ أرضُ الحبشة عن أنظارنا؛ اتسعتْ ابتسامتي.. وتنفَّستُ الصعداء.. وانتشيتُ، رمقتني زوجتي بنظرة ارتياب، ثم ابتسمتْ في ارتياح؛ كأنَّما أرادتْ أنْ تقول: أعرف أنَّك لم تكن تدعه.. حتى تَقتصَّ لي منه!
بيد أنَّها أحجمتْ عن أنْ تكلِّمني في شأنه؛ لكنّي فهمتُ.. وها أنا ذا قد فعلتُ!!

ثم نزلنا أرضَ العرب.. وانطلقنا في الصحراء، وقُبَيل مشارف مكة.. سألتني بشيءٍ من الفزع –كأنّها تذكَّرتْ أمراً.. كانت نسيته-:

- ماذا ستقول للوليد بن المغيرة وبني مخزوم.. يا عمرو؟؟!

أجبتُها باقتضابٍ.. وعدم اكتراث:

- سأقول الحقيقة!!

وقد قلتُها.. وعدنا سالمين، بيد أنَّنا رجعنا إلى مكة؛ فعثرنا عليها.. في حالٍ أفظع مما تركناها عليه: تزايد أتباعُ محمد؛ إنْ كادتْ فتنته لتَربِض في كل بيتٍ مِن بيوت مكة، واحتدم الخلاف بين قريش.. وبني هاشم، وتَوعَّد كبراؤها أبا طالب.. إنْ أَصَرَّ على حمايته لمحمد، وأنذروه أنَّهم –لو لم يردعه- سيقتلوه!!

على أنَّ أبا طالب لَجَّ في دفاعه عن ابن أخيه، وجَمَّع مَن طاوعه مِن بني هاشم وبني المطلب بن عبد مناف، واعتصموا حَوَل محمد في شِعْب أبي طالب.. يخافون عليه الغِيلَة.

في تلك الأثناء.. تنامى إلى علمنا اِطِّرادُ أعداد الهاربين إلى الحبشة؛ مما أزعج والدي.. وسادات قريش.

وكذا.. وُهِبتُ ولدي: (العاص)؛ لا غرو أنْ أُسمِّيه (العاص).. كاِسم جده؛ فهو أحب الرجال إليّ، ويا ليته.. يؤتى عقلاً وحكمةً.. كعقل جده وحكمته!!

ثم قضى ملأُ قريش بمقاطعة بني هاشم، وحَصْرهم في الشِعْب.. حتى يخضعوا لنا.. ويُخلّوا بيننا وبين محمد.

وكذا.. بقي أبي –وأنا تَبَعٌ له- مع قريش.. على عداوة محمد.. وبني هاشم!!!

على أنَّ الكساد.. أصاب بضاعتنا، ورُزِئ أبي في تجارتنا؛ أصابتنا فيها خسائرٌ عديدة، لا جرم.. بسبب سفارتي الفاشلة لدى النجاشي.. واختلال علاقتنا به في تلك السفارة!!

لكن.. العاص بن وائل رجلٌ شديد؛ لا تكسره المصائب.. ولا تقهر كبرياءه، صمد لها.. وصمدتُ معه، على أنّي أعترف أنَّ أشدّ ما أرهقنا –وأفرغ خزائننا.. خلال تلك الفترة- هو إصرار العاص على المُضيّ في الإنفاق ببذخٍ وإسراف.. كما كان دَأْبه –آنفاً- قبل الأزمة.

انصرمتْ بضع سنين؛ تجاوزناها –أنا ووالدي- في عسر!!؟

كما تجاوزها بنو هاشم.. رغم الشدة والتضييق، خرجوا مِن الشِّعْب ظاهرين، وانبعث محمدٌ.. يُمعِن في سَبّ آلهتنا وتسفيه أحلامنا، ولم يَرعَوِ..

حتى بعد هلاك عمه أبي طالب؛ وإنَّما جعل يتعرَّض لوفود العرب القادمة في موسم الحج، ويعرض عليهم نفسه ودينه!!

في غضون تلك الأحداث.. انكفأ أخي الصابئ (هشام).. آيباً –خِلسة- إلى مكة، بيد أنَّ العاص عَلِم بخبره؛ فقبضنا عليه.. واعتقلناه في محبسٍ بالدار، وأقسم الوالد: ليُعذبنَّه بيده حتى يرجع عن دين محمدٍ.. أو يموت!

ثم أمستْ قريش على شفا حربٍ وشيكةٍ بين بطونها؛ وذلك أنَّ أبا الحكم (عمرو) -ابن هشام بن المغيرة المخزومي- ألَّب السادة.. فأجمعوا على قَتْل محمدٍ، وحاك لهم مكيدةً شيطانية: أنَّ تشترك بطون قريش جميعها في قَتْله بضربةٍ مُوَحَّدة؛ فيتشتَّت دمه بين القبائل، ويعجز بنو هاشم عن ثأره؛ فيقنعوا بالدِّيَة، وتموت فتنته معه!!
لا جناح أنْ يشترك بنو سهم في ذلك الاغتيال العظيم؛ فهو شرفٌ للذين يُشاركون فيه!!
والعَجَبُ.. أنَّ محمداً نجا؟!! رغم أنَّهم أحاطوا ببيته إحاطة السِّوَار بالمِعْصم؛ انسلَّ مِن بين أيديهم.. ولم يشعروا به.
اِشتعلتْ مكة غيظاً وحقداً: كيف نفذ مِن بين أيدينا؟!! لن يفلت مِنّا!! لن ندعه يفزع إلى يثرب؛ لنتربَّص به في الطريق إليها!!
قعدوا له كل مرصد.. وأعلنوا الجوائز لمَن يُمسك به؛ والعَجَبُ العُجَاب.. أنَّه نجا.. والتحم -في سلامٍ- مع أصحابه في يثرب.

في تلك الأثناء.. حاول أخي (هشام) الهروب من محبسه –أكثرمِن مرة- ليلتحق بمحمد؛ لكنّا –أنا ووالده- رصدناه.. وأفسدنا عليه تدبيره، وشدَّدنا وثاقه.. في محبسه.

*****

ذات يومٍ –بعد تلك الأحداث بأسابيع-.. أحب والدي أنْ يخرج للتنزُّه؛ فهيَّأنا له راحلته.. وذهبتُ معه، مضينا نتناجى.. ونسعى بين شِعاب الجبال.. حتى مَلَّ الكلام.. وأجهده الركوب؛ فأنختُ به في أحد الشِعاب.. لينزل يمشي، فلَمَّا وضع قدمه على الأرض.. صاح صيحة ألمٍ شديدة؛ أوجعتْ قلبي.. فهرعتُ أسأله:

- ما خطبك.. يا أبتاه؟!!

أجابني.. وهو يئن من الوجع:

- شوكةٌ شاكتني.. يا ولدي!!

أسرعتُ أتفحَّص قدمه؛ فما وجدتُ بها شيئاً، طفتُ حوله.. عسى أنْ تكون حيةً أو عقرب.. ثم هتفتُ مُندهِشاً:

- لا أرى شوكةً.. ولا أثراً لشيءٍ.. يا أبا عمرو!!؟

قال بصوتٍ واهن.. مُشبَّع بالتشاؤم:

- احملني.. إلى.. الدار!!

ارتدّتُ به.. إلى الدار، ولجتُ البيتَ.. أحمله؛ هرولتْ ريطة.. تسأل مُتوجِّسة:

- ماذا أصابك.. يا عماه؟!!

أضجعتُه في فراشه.. وأجبتُها:

- لا ترتاعي!! ليس بعمكِ بأسٌ!!

تركناه يرتاح في مخدعه، وانصرفنا عنه.. وأنا لا أُشك في أنَّه مجرد إرهاق من النزهة؛ فهو شيخٌ كبير.. تجاوز بضع وثمانين سنة.

على أنَّه بات ليلته.. يئن ويتَوَجَّع، ثم أصبح يصرخ مُتألِّماً.. ولم نستطع صرف الألم عنه، ثم غدتْ قدمه تتَوَرَّم؛ فهرعتُ إلى أطباء مكة.. فما نفعه دواؤهم؛ بل ازداد الأمرُ سوءً.. و عَمَّ الورم سائر رِجْله، وفي فترةٍ وجيزة.. انتفختْ حتى صارتْ مثل عنق البعير، ثم أخذ الضرر يسري إلى سائر جسده؛ استفحلتْ عذاباته.. وتعالتْ صرخاته حتى لم يعد قلبي يطيقها.

استغثتُ حكماء وكهان مكة:

- كيف أستشفي لأبي؟؟ كيف أصرف عنه أوجاعه؟!!

نصحني بعضهم.. أنْ ألتمس دواء عِلَّته لدن أطباء الطائف؛ فانطلقتُ أنهب الأرض إلى هناك.. وصرخاته في أُذني.. تعصر قلبي.. وتَنكُز دابتي.

بلغتُ الطائف؛ فسألتُ عن خير حكمائها وعَرَّافيها، هرعتُ أستجير به.. هاتفاً: "أبي -شيخ بني سهم- لدغته الأرض.. ولا دواء ناجع!؟؟".

رجوتُه أنْ ينطلق معي إليه، انطلقنا نَحُثّ الخُطى.. إلى مكة!

لكن.. وصلنا بعد فوات الأوان، مات العاص بن وائل السهمي!!؟

وكأنّي بالحصن الحصين -الذي أَمتنع به- قد انهدم فوق رأسي!!

*****

بعد لُجُوء محمدٍ –وكثيرين من أصحابه- إلى يثرب.. تبدَّل الصراع بيننا وبينهم؛ قد صار لهم دار حربٍ.. يتحصَّنون بها، ثم انبعثوا منها.. يُناوشوننا بالسلاح، ويُهدِّدون طرق تجارتنا إلى الشام!!

والأنكى أنَّه.. غدا يعقد التحالفات مع بعض الأعراب المحيطين بيثرب!
أحدق بنا خطره من كل جهة، ووجب علينا أنْ نُشمِّر لحربه.. حتى نقضي على خطره.. ونستأصل شأفة أتباعه!!؟
بلغتْ إجتراءاته علينا ذروتها.. حينما خرج يترصَّد لطيمة قريش العائدة مِن الشام.. والتي فيها جلّ أموال قريش، نمى الخبر الفادح إلينا.. وعلمه ملأ قريش علم اليقين؛ فانبرى أبو الحكم المخزومي لمواجهته.. ليضع حداً لاعتداءاته، وتَألَّى على قريش.. أنْ ينطلق معه ساداتها أجمعون؛ فبرز معه سادة بني سهم.. وأنا معهم.
واجتمع لقريش جيشٌ مهيب.. يقوده أبو الحكم المخزومي، وينخرط فيه أغلب كبراء قريش؛ والذي لم يتمكَّن منهم مِن الخروج.. بعث مَن ينوب عنه، على أنَّ اللطيمة نجتْ مِن خطر محمد؛ احتال أبو سفيان بن حرب العبشمي –الذي يقود قافلتها-.. وتَحَوَّل بها إلى طريقٍ آخر بعيدٍ عن يد محمد.

غير أنَّ سادة قريش –وعلى رأسهم: أبو الحكم- رفضوا الرجوع إلى مكة قبل أنْ يُظهِروا سطوتهم.. ويؤدِّبوا محمداً وصحبه؛ فالتقينا عند آبار بدر.

تراءى الجمعان.. وانتظمتْ الصفوف للقتال؛ لا أُنكر أنَّ محمداً اختار موقعاً أفضل مِن موقعنا: نزل قبلنا.. فسيَّطر على الماء، وجعل الشمس وراء

ظهره.. فأصبحتْ في أعيننا.. فبهرتْ أنظارنا.. وأربكتْ تحركاتنا؛ ورغم ذلك.. نحن أكثر منهم عدداً وعتاداً.. وهم شرذمةٌ قليلون!!

سَللنا سيوفنا، ورُفِع لواء قريش.. حتى ناطح السماء، صاح أبو الحكم.. وهاج الفرسان.. وثار الغبار حتى لبَّد السماء!

ثم انقشع.. وقد سقط اللواء ودهسته أقدام محمد، وسقط أبو الحكم صريعاً.. وقُتِل صهري (مُنبه بن الحجّاج).. وأخوه وولده، تضعضع جيش قريش؛ قُتِل مَن قُتِل.. وأُسِر مَن أُسِر، وانهزمتُ مع المنهزمين.. إلى مكة!!؟

دخلناها في أبشع هيئة.. بأسوء خيبة!!

فشا النبأ الفاجع في رُبُوع مكة.. حتى أنَّه تسرَّب مِن شقوق الجدران إلى الصابئين المسجونين.. أمثال أخي (هشام)؛ طربوا له.. وازدادوا عِزّاً وصُمُوداً، ورأيتُ الشماتة في أعين هشام!!؟

بكتْ نساءُ قريش قتلاها، وخشى الرجالُ شماتةَ الأعداء.. فحرَّموا البكاء، لكنّي.. ما استطعتُ أنْ أَنهى ربطة عن بكاء أبيها وأخيها وعمها؛ فبكتهم بكاءً حاراً، وحَرَّقتْ الفاجعةُ فؤادي.. أنا أيضاً!

في بدر -وفي غداةٍ واحدة- قَطَفَتْ سيوفُ محمد رءوسَ قريش!؟؟

*****

يوماً.. بعد يومٍ، ورويداً.. رويداً.. هدأتْ فورتي.. وسكت غضبي.. وسكن جزعي؛ لكنّي.. لن أنام –أبداً- عن ثأري وثأر قريش؛ فقد ألفيتُ نفسي.. رأس بني سهم، وألفيتُ أبا سفيان بن حرب.. زعيم قريش!

للسيادة واجباتٌ.. ينبغي ألا يتقاعس المرؤ عنها، ومن وجبات السيادة: الانتقام للهزيمة.. والثأر للقتلى؛ فأقسم أبو سفيان: ألَّا يمسَّ رأسه ماءٌ من جنابةٍ.. حتى يغزو محمداً؛ فتعجَّل وقرَّر غزو يثرب.. ولَمَّا ينقضي شهران على وقعة بدر، خرج في مائتي راكباً –كنتُ واحداً منهم- .. نقصد يثرب، ثم تسلَّلنا إلى أنْ نزلنا عند جبلٍ قريبٍ من يثرب، ثم انسلَّ أبو سفيان –ليلاً.. وكنتُ معه- حتى أتى باب سيد بني النضير (سَلَّام بن مِشْكَم) –وهم.. يومئذٍ.. حلفاء محمد- أكرمنا وأطعمنا وسقانا.. ودَلَّنا على خبر القوم ومكامن ضعفهم.

ثم أصبحنا.. فأغرنا على ناحيةٍ –مِن يثرب- لهم فيها حرث ومرعى؛ فحرَّقنا نخيلها.. وقتلنا رجلين منهم، غير أنّنا بُغِتنا بطلعيةٍ مِن جند محمدٍ.. تُقبل في طلبنا؛ فانطلقنا هاربين منهم.. حتى أنّنا ألقينا شيئاً كثيراً من أزوادنا -تخفُّفاً من الأحمال- كي نتمكَّن مِن الفرار، رجعنا سالمين إلى مكة، و بررنا يمين أبي سفيان؛ لكن لم نغنِ عن أنفسنا، وما استعدنا هيبة قريش!!؟

ثم مَشيتُ مع الذين سعوا إلى أبي سفيان لنرصد أموال اللطيمة على الثأر لقتلى بدر.. والانتقام لشرف قريش؛ فاستجاب لنا.. ومضينا –مُتحفِّزين- نتأهَّب.. للجولة القادمة.

*****

رغم ما أصاب آل بيت (العاص بن وائل) مِن إملاقٍ في نهاية حياته.. إلا أنّي لم استسلم؛ لن يمنعني العُسْر أنْ أظلّ مِن أسياد قريش.. كما ظَلَّ والدي حتى موته، وإنْ قَلَّ المال في يدي.. الحين؛ لكنّي -بعقلي ودهائي- أستطيع أنْ أبلغ ذروة الشرف والسؤدد بين قومي.

خَطَّطتُ لأمري.. وعقدتُ عزمي، وسعيتُ إلى أبي سفيان، انتبذتُ به -بعيداً عن القوم- وأسررتُه بالحديث؛ فأُعجِب برأيي.. وتحمَّس لخطتي، قلتُ:

- إذاً.. أعانوني بأموالكم.. وأنا لها!

أمّا خطتي فهي: معاودة الاتصال بالنجاشي؛ نستشفع عنده بالشفعاء من بطانته -الذين أعرفهم عن قُرب- حتى يرضى.. ويُسلِّم لنا جعفرَ وأصحابه؛ فنقتلهم بمَن قُتِلوا منّا يوم بدر!

أشدّ المتحمّسين.. كان أبو سفيان، لكن أكثر الباذِلين.. كانوا آل المغيرة بن عبد الله المخزومي، ولا غرو.. فهم أشدُّ آل بيتٍ موتورين في قريش.. وهم أكثر أهل مكة أموالاً؛ لذا.. فلا عجب.. أنَّ يكون سفير قريش المرافق لي: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي.

سرعان ما جمعنا أموالاً كثيرة وهدايا عظيمة، وتجهَّزنا.. للرحلة؛ **(ولا أنكر أنّي أردتُ بهذه الرحلة انعاش صلتي الطيبة القديمة بالنجاشي.. لتعود كما كانت؛ بعدما أفسدها عليَّ عمارة بن الوليد بعربدته ورعونته!)**.

ثم انطلقنا إلى أرض الحبشة؛سابقنا الزمن.. حتى بلغنا مدينة أكسوم.. في أقرب أَمَد.

أمّا ابن أبي ربيعة –**فعلى النقيض مِن ابن عمه السِّكِّير**- كان خير عوناً لي.. حتى أنَّه تركني أُنفق مِن أمواله كيف أشاء.. وأهب مَن أشاء!!

بعد مفارقةٍ دامتْ بضع سنين.. دلفتُ إلى قصر النجاشي، ثم تَوَجَّهتُ إلى الذين أعرفهم مِن بطانة المَلِك، وأعطيتُهم.. حتى رضوا، استوثقتُ منهم.. وأعطوني العهد بأنَّهم سيُؤيّدونني.. وسيشفعون لي عنده.

رغم المخاوف -والتوجُّس أنْ يُسيء استقبالنا لأجل فعلة عمارة بن الوليد الشنيعة منذ بضع سنين-.. استأذنتُ في الدخول إلى النجاشي؛ وعلى غير ما تَوَقَّعتُ.. أذن لي، وأحسن لقائي.. كأنَّما ضرب صفحاً عمّا مضى.

سجدنا بين يديه.. وبذلنا الهدايا النفيسة تحت قدميه حتى اغتبط، ثم تَوَسَّلنا أنْ يقضي لنا حاجتنا، وشفع لنا الشفعاء: "بأنَّ أولئك الصباة تركوا ديننا.. ولم يدخلوا في دين النجاشي، وأنَّهم جاءوا بدينٍ مُبتدع.. لا يعرفه العرب.. ولا الحبشة!!"، لكنَّه رفض أنْ يخذلهم.. هاتفاً بإصرار:

- لن أخون أناساً.. لاذوا.. بجواري!!

ثم استطرد.. كأنَّما يُذكِّرني بالماضي الذي تناسيتُه:

- ما أطاع اللهُ الناسَ فيّ.. حين رَدَّ عليّ مُلكي؛ فلن أُطيع الناس فيه!!

فهمتُ مراده: لقد أرسل ربه صاعقة السماء على غريمه؛ فأهلكتْه.. وأعاد له مُلْكه مِن غير أنْ يأخذ منه رِشوة.. كتلك الهدايا التي جئتُ –بها- إليه، وأولئك الصباة يدَّعون أنَّهم حزب الله، أصحمة.. رجلٌ عنيد.. صلبٌ في دينه، ولن يتراجع.. إلا أنْ يخاف -على دينه- من هؤلاء الصباة.

تكدَّرتُ.. وتحسَّر ابن أبي ربيعة المخزومي، لبثتُ ليلةً طويلة.. أتفكَّر وأتدبَّر: "لن أرجع خائباً هذه المرة أيضاً!!".

ثم انبثقتْ في خاطري فكرة؛ فأصبحتُ أَهُزّ المخزومي.. وأهمس في أُذنه:

- قُمْ.. يا أخا مخزوم! فوالله.. لأُنبِئنَّ النجاشي –غداً- عيبهم عنده، ثم أستأصل به خضراءهم!!

نهض المخزومي مضطرباً.. وتساءل في تَوَجُّس:

- ماذا ستفعل.. يا عمرو؟!!
- لسوف أجعله يسخط عليهم.. حتى يُقتِّلهم بنفسه!!
- لا تفعل.. يا ابن العاص! إنَّ لهم أرحاماً؛ وإنْ كانوا خالفونا!!

لم أعبأ بقوله.. بل زجرتُه مُعاتِباً:

- هل تُشفق عليهم؟! ألسنا نطلبهم.. لنقتلهم؟!! إنَّ قَتْل النجاشي لهم.. أنكى وأشدّ على محمدٍ!!؟

دلفتُ إلى النجاشي، سجدتُ له مُبجِّلاً، ثم قلتُ بتوقير.. وبصوتٍ مُعتذِرٍ:

- عفواً.. أيها المَلِك العظيم! إنَّهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم.. واسألهم عمّا يقولون فيه!!

لم أزد؛ امتعض.. وقَطَّب جبينه، ثم صاح بانفعال لا أشك أنّه غضبةٌ لربه:

- إليَّ بهم.. لأُكلِّمهم!!

دخل جعفر بلاط النجاشي.. ورآني أجلس إلى جواره، تعمَّدتُ أنْ أنظر في عينيه.. ليرى فرحة الشماتة تلمع في عيني؛ غير أنَّه أعرض عني.. ودنا مِن النجاشي.. في ثباتٍ، سأله النجاشي.. بلهجةٍ صارمة مُخِيفة:

- ماذا تقولون في عيسى؟؟!

خَفَتَ هنيهة.. ثم انطلق لسانه.. يصدح بلا تردُّد:

- نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: هو عبد الله.. ورسوله.. وروح منه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول!!

نزل النجاشي مِن فوق عرشه، والتقط عوداً مِن الأرض، ثم اقترب مِن جعفر، ثم قال له:

- ما تجاوز عيسى ما قلتَ.. هذا العود!

تفاجأتُ بفعل النجاشي وقوله.. وارتبكتُ!!؟
لستُ وحدي الذي فُجِئتُ؛ بل.. الأساقفة القائمون حوله.. أيضاً اضطربوا وتناخروا مُعترضين على قوله، على أنَّه التفتَ إليهم.. صائحاً برباطة جأش:

- نعم!! وإنْ نخرتم!!

ثم تَوَجَّه إلى جعفر.. مُخاطِباً في حسمٍ وحزم:

- اذهبوا.. فأنتم الآمنون! ومَن سَبَّكم.. غُرِّم!!

ثم قصد إليَّ.. صائحاً:

- "يا عمرو! ما أحب أنّ لي جبلاً مِن ذهب.. وإنّي آذيتُ رجلاً منهم! لا حاجة لي بهدايكم؛ فوالله.. ما أخذ اللهُ مني الرشوة حين رَدَّ عليَّ مُلْكي؛ فآخذ الرشوة فيهم!!؟": أعادها عليَّ مُبكِّتاً..

ولم يكتفي بهذا؛ إنَّما زأر في صرامة مُفزِعة.. وعيناه تتوَهَّج حنقاً:

- رُدّوا.. على هذا العربي.. هداياه!!

ساعتئذ.. سُقِط في يدي، وأحسستُ كأنَّ الأرض تميد بي: لم تفشل سفارتي فقط؛ بل أضعتُ صلتي الطيبة بالنجاشي (أصحمة) التي كنتُ أُعوِّل عليها في تعويض خسائر تجارتي؛ ولربما.. أضعتُها للأبد!!؟

*****

شعرتُ.. كأنَّ محمداً قطَّع أواصر الصلة بيني وبين أصحمة صديق الصبا.. كما قطَّعها –آنفاً- بيني وبين أخي (هشام).

شعرتُ أنَّ سأُغادر الحبشة.. بلا رجعة!!؟

قبيل ارتحالي عن الحبشة.. انسللتُ –خُلْسَة- إلى أُسقفٍ كبير؛ أعرف تشدُّده وتعصُّبه لدين الحبشة، سلَّمتُ عليه.. هاتفاً:

- جئتُ.. أودِّعك.. يا سيادة الأسقف!
- عذراً.. يا عمرو! وددنا أنْ ترحل مجبور الخاطر؛ لكن.. أصحمة تأبَّى علينا!! لا ريب.. سنراجعه في موقفه منك.. ومن أولئك المهرطقين!؟؟
- عفواً.. يا سيادة الأسقف! أحسب أنّي سأرحل -عن الحبشة- هذه المرة.. بلا رجعة؛ فإنَّ النجاشي أهانني -وأهان وفد قريش- بردِّه هدايانا التي جلبناها لكم!
- كلا.. يا رجل!! إنَّا نحترمك.. ونُجِلّ قومك!

همستُ في أُذنه.. همسةً ناصحة:

- أخشى –يا سيدي- أنَّ النجاشي سيورِّط الحبشة في خصومة معنا ومع العرب كافة.. بتمسُّكه بإيواء هؤلاء الصابئين ومَنْعهم مِنَّا، ونحن –كما تعلم- نكره أنْ نعادي الحبشة أو نخسر صلاتنا بها!!؟
- اطمئن.. يا ابن العاص!! لن نسمح له أنْ يَزُجّ بدولتنا في خصومةٍ مع أصدقائنا.. لأجل شرذمة مِن الصابئين المهرطقين!!
- أيَّدكم الله.. يا سيادة الأسقف! لكن.. حق الصداقة التي بينك وبيني –وبين أبي.. مِن قبلي- تُحتِّم عليَّ أنْ أصدقك النصيحة؛ فلعلّها نصيحة مُودِّع.. لن يعود إلى أرضكم!
- لا تكن متشائماً.. يا عمرو! على أنّي أود أنْ أسمع نصيحتك؛ هات.. ما عندك!

- اعلمـوا أنَّ هـؤلاء الصـباة ابتـدعوا دينـاً جديـداً –**لا نعلمـه.. ولا تعلمونه**- سـفَّهوا بـه أحلامنـا، وكفـروا بآلهتنـا.. وأهانوهـا، وفرَّقـوا بـه جماعتنـا؛ فرَّقـوا بـين الأب وابنـه.. والأخ وأخيـه.. والرجـل وزوجـه، قطَّعـوا بـه الأرحـام، وأفسـدوا علينـا حياتنـا! وإنّـني أخشـى عليكـم أنْ يُصيبكم ما أصابنا.. إذ يؤمِّنهم النجاشي في بلادكم؛ فيعيثوا فيها الفساد، ويُفرِّقوا جماعتكم.. كما فرَّقوا جماعتنا!
- لا تقلق.. يا عمرو! فلن أسمح بذلك، ولن يظلَّ أولئك المهرطقون آمنين -في أرضنا-.. إلى الأبد!؟ ولابد.. سأجمع البطارقة والأساقفة، ونجتمع بأصحمة.. لنجبره على طردهم من بلادنا!!

*****

أُبعِدنا عن بلاط النجاشي مَقبوحين مَخْزِيّين.. مَردوداً علينا هدايانا، خابتْ سفارتي الثانية؛ ولستُ أدري: هل مِن سبيل إلى إصلاح ما انكسر بيني وبين أصحمة.. أم لا؟!!

نكصتُ على عقبيّ إلى مكة.. مُجلَّلاً بالفشل والإحباط، غير أنّي وجدتُها.. قد تَأهَّبتْ للحرب، استنفرتْ قريشُ حلفاءها (الأحابيش)، واستخرج أبو سفيان كل مَن قَدِر على حمل السلاح؛ فالتأم لقريش جيشٌ قوامه ثلاثة آلاف مقاتل؛ لا ريب.. كنتُ بينهم بسيفي وجوادي.

زحفنا إلى يثرب، والتقينا بمحمدٍ وأصحابه.. عند سفح أُحُد.

وعند سفح أُحُد.. حصدنا رقاب سبعين رجلاً مِنهم –مثلما قتلوا مِنَّا يوم بدر- .. بينهم عمه (حمزة)، وكدنا نقتل محمداً نفسه.. لولا أنَّه استعصم، واستبسل أصحابه حوله؛ عجبتُ: كيف يحب القومُ رجلاً.. حتى أنَّهم يُقتَلون فداءً له!؟؟ ورغم انكسارهم.. تمنَّعوا علينا.. مُصعِدين في الجبل؛ انكففنا عنهم، وواعدناهم العام القابل عند بدر.

ثم تنامتْ إلينا أنباءٌ أكيدة -خلال الأيام والأشهر التالية-: بأنَّ محمداً فرض الجلاء -عن يثرب- على يهود بني النضير؛ فقصدوا خيبر.. وهاجرو إليها.

ثم حال حَوْلٌ.. وحان ميقاتنا مع محمد الذي توعَّدناه به، ورغم أنَّها كانت سنة جدبٍ وجفاف.. تَجمَّعنا وتحرَّكنا في اتجاه بدر.. حتى بلغنا قريب منها، وتواردتْ إلينا الأخبار: أنَّ محمداً وصحبه سبقونا –وِفق الميقات- إلى ماء بدر.. منذ أيام؛ لا ريب.. يطمحون إلى استرجاع هيبتهم التي أسقطناها يوم أُحُد.

لكن.. نظر أبو سفيان –وهو سيد القوم- في حال الناس الذين معنا في الجيش؛ فألفاهم متراخين مُتقاعسين عن اللقاء.. فصاح فينا:

- يا معشر قريش! إنَّه لا يُصلحكم إلا عامٌ خصيب.. ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن؛ وإنَّ عامكم هذا عام جَدْب، وإنّي راجعٌ.. فارجعوا!!

ثم نكصنا على أعقابنا.. إلى مكة؛ فاستقبلنا أهلها ساخرين مِن رجعتنا دونما قتال!؟؟

تكدَّرتُ لهذا الخذلان، وشعرتُ بالخزْي لإخلافنا ميقات محمد.. كأنّنا نهاب لقاءه، ولا أخجل أنْ أذكر –هنا- أنّي بعد الفاقة التي أصابتْ بيت العاص بن وائل.. قبيل وفاته، وبعد فساد علاقتي بأصحمة.. وثروات الحبشة ...

أقول: لا أخجل أنْ أعترف -**بعد هذه الانتكاسات**- أنّي أصبحتُ أعتمد على سيفي ورمحي لتعويض ما خسرتُه.. بغنائم حربنا مع محمد!!؟

لذا..مشيتُ إلى أبي سفيان.. ومعي آخرون (**أمثال: خالد بن الوليد.. وصفوان بن أمية**)، وعزمنا عليه أنْ نبرز لملاقاتهم العام القادم؛ فأَقَرَّ لنا بما نرغب.

*****

ثم وفد علينا حيي بن أخطب –زعيم يهود- في عشرين رجلاً مِن سادات بني النضير -**ليُحرِّضنا على محمدٍ**- زاعماً أنَّ محمداً نقض عهده معهم.. وحاصر حصونهم.. وحَرَّق عليهم ديارهم حتى أجلاهم عن يثرب رغماً عنهم.

مع أنّنا ندرك كذبهم على محمد؛ فنحن أعلم بابن عمنا منهم: (**نعلم أنَّ ابن عبد المطلب لا ينقض عهده، ونعلم أنَّهم هم البادئون بالشر ضده.. ولا أدلّ على ذلك مما صنعه سَلَّام بن مِشْكَم معنا بعد وقعة بدر**).

أقول: رغم أنّا نعرف كذب مزاعم بني النضير وغدرهم.. إلا أنّنا أظهرنا تصديق سيدهم.. وقلنا:

- ثأرنا.. واحدٌ؛ فهات ما عندك.. يا زعيم يهود!!

فقال بصوته الخفيض الماكر:

- يا معشر قريش! نشهد أنَّ دينكم خيرٌ مِن دين محمد؛ وقد جئنا ننصركم عليه، وقد ألَّبنا عليه قبائل العرب: غطفان.. وبنو أسد..

وسِـوَاهم، وقـد واعـدنا غطفـان إنْ جاءونـا بـجيشٍ فيـه سـتة آلاف مقاتل نغزو بهم يثرب.. أنْ نهبهم نصف تمر خيبر لمدة سنة!!

- وماذا تريدون منّا.. يا زعيم يهود؟؟!

أجاب الداهية.. والحقد يتناثر مِن بين شدقيه:

- إذا أجبتمونـا لمـا نحـب.. انـدفعتْ أحزابنـا –**مجتمعين معاً**- لـنغزو يثـرب بـجيوشٍ لا قِبَـل لـمحمد بهـا؛ آنئـذ.. تثـأرون لـكرامتكم وتقضـون على فتنةٍ أقضَّتْ عليكم مضاجعكم، ونرجع نحن.. فـنسكن بلدنا وديارنا، وتُحصِّل غطفان –**مِن خيرات يثرب**- ما يكفيهم!!

فرصـةٌ سـانحة لاجتثاث عـدونا.. ينبـغي ألا نفوّتهـا، ولـم نفوّتهـا.. واتفقنـا مـع زعيم يهود، وتواعدنا أنْ نلتقي وإياهم في الميقات أمام يثرب.

مضينا نجمع حلفاءنـا مِن كنانـة حـتى اجتمع لنـا جيشٌ قوامـه أربعـة آلاف مقاتل، ثم زحفنا بهم صَوْب يثرب.

وجاء أهل نجد –**غطفان وبنو أسد.. وقبائل شتى**- حتى اكتمل توافد الأحزاب من كل جهة؛ فتحرَّكنا.. حتى التأمتْ جيوشنا قُبَالة يثرب.. في الموعد الذي تعاقدنا عليه مع زعيم يهود.

جـيشٌ.. تعـداده عشـرة آلاف مقاتـل؛ سـوادهم يكسـو وجـه الصـحراء، يزحفـون في بـطء مِـن كـثرة عـددهم.. وثقـل مـا يحملـون مِـن حديـدٍ ودروع، دروعٌ بالآلاف.. تتلألأ في ضوء الشمس؛ فتملأ قلوبنا ثقةً في نصرٍ محتوم.

لا يُسـاورني شـكٌ في أنّنا سـنهدم يـثرب فـوق رءوسـهم، وأنّني سـأغنم -**مِن فيء يثرب**- ما يُغنيني عما فقدتُه عند نجاشي الحبشة.

شمرتُ عن ساعد الجد، وهززتُ سيفي، ونكزتُ جوادي.. ليركض بي صوب يثرب.. صوب الغنائم والثراء والشرف.

على أنَّ يثرب قريةٌ.. تُحصِّنها الجبال والحرات التي تحيط بها مِن جهات ثلاث؛ فلا يُمكن لجيشٍ –كهذا- أنْ ينفذ إليها.. إلا مِن جهة شَمالها فقط؛ إذ تمنعها حرةُ واقم مِن الشرق.. وحرةُ الوبرة مِن الغرب؛ تحجزانها.. فلا منفذ إليها مِن إحدى الجهتين، أمَّا مِن جهة الجنوب فيحصِّنها جبل عير مِن لدن قباء.. وحصونٌ منيعة ليهود بني قريظة الذين تعاهدوا مع محمد على الدفاع عن يثرب.. ولا يزالون على عهدهم معه.
لذا.. فقد اتفق أمرنا على مهاجمتها مِن جهة الشمال، وتقسَّمتْ جيوشنا لثلاثة عساكر.. وجُعِل ملاك أمرها –جميعاً- لأبي سفيان بن حرب.
لكنَّنا اصطدمنا بخندقٍ طويلٍ.. يصل بين الحرتين.. قاطعاً الطريق بيننا وبين يثرب، عريضاً.. لا يملك الحصان الأَرِن اجتيازه في قفزة مهما وسعتْ خطوته، عميقاً.. عمقه يزيد عن قامتين أو ثلاثة، وعلى حافته مِن الجهة الأخرى تكوَّم ردماً وعلا حتى صار ارتفاعه أعلى مِن الرجل الراكب.. فستر عنّا ما يدور خَلْفه!؟؟
ذهلنا.. وتحيَّرنا.. وعجزنا عن التفكير: كيف نجتاز ذلك الخندق اللعين؛ إنَّها مكيدةٌ.. لم تعرفها العربُ -مِن قبلُ- في حروبها!؟؟

عكفنا عليه –بضعة عشر يوماً- نرسل كتائب الفرسان، يحاولون اجتيازه.. وإختراق حرّاسه الرابضين وراءه؛ حاولنا.. وحاولنا.. مراتٍ ومرات؛ وفي كل مرة.. نفشل فشلاً ذريعاً.. حتى يأس الفرسان، تكدَّر قادة الجيوش.. وسُقِط

في أيدينا، وأيقنَّا أنْ لا سبيل لاجتياح الخندق، أو اختراق الصفوف التي تستبسل مُدافعةً عنه!؟؟

كلما تعاقبتْ علينا الأيام؛ غشيتنا الكآبة، وأصاب الفتورُ عزائم الجنود.. واجتالهم اليأس والاحباط، كَلَّ الفرسانُ.. وهمدتْ هِمَمهم، وهلكتْ الكُرَاع، أوشكتْ المُؤْنَة على النفاد.. وسئمنا المُكث في العراء؛ فما العمل؟!!

قرَّرنا الالتفاف حول محمدٍ من الخَلْف؛ سعينا –بوساطة حيي بن أخطب- إلى بني قريظة، وما زلنا نغريهم بنقض عهدهم مع محمد.. والانضمام إلينا، ومِن ثَمَّ الانقضاض عليه مِن جهتهم التي يظنُّها آمنة؛ ما زلنا بهم.. نغريهم ونُحرِّضهم.. حتى أذعنوا لنا ونقضوا عهدهم مع محمد!!

ليلتئذ.. بتنا –في العراء- نمنِّي أنفسنا بالنصر المبين.. والثأر العظيم.. والغنائم التي لا حصر لها؛ بيد أنَّ بني قريظة تلاعبوا بنا.. ونكثوا أيمانهم، ونقضوا عهدهم معنا.. كما نقضوه مع محمدٍ من قبلُ!؟؟

قضينا بضعاً وعشرين ليلةً.. قابعين أمام هذا الخندق المرصود، في العراء.. نقيم بأسوء منزل، استنزفتْ طاقاتنا.. وتهاوتْ عزائمنا، وتبدَّدتْ آمالنا.. بعد أنْ نكص بنو قريظة متخاذلين عن نصرتنا!؟؟

ثم هبَّتْ على عسكرنا ريحٌ باردةٍ عاتية؛ راح الرجال يَتخبَّطون.. في ظلماتها الشديدة وهَبَّاتها العنيفة، وينطرحون على الأرض.. وعلى أمتعتهم، تضعضع العسكر.. وتَشتَّت شمله!؟؟

واختلط عواء الريح.. بصرخات الفزع.. وصهيل الخيل.. وضجيج الإبل، تَقَطَّعتْ أطنابُ الخِيَم.. وتَهدَّمتْ فوق أرؤسنا!؟؟

أذهلنا الفزعُ.. عن أنفسنا، زاغتْ قلوبنا.. وشردتْ أذهاننا؛ ارتعبنا.. وارتعب زعيمنا (أبو سفيان)، وانبعث صارخاً.. في اضطراب:

- يا معشر قريش! والله.. إنَّكم لستم بدار مقام، ولقد هلك الكراع والخف، واختلفتنا بنو قريظة.. وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا مِن هذه الريح.. ما ترون؛ فارتحلوا.. فإنّي مُرتحل!!

انتكسنا.. وانسحبنا مرتعبين مرتحلين إلى مكة؛ انفضتْ الأحزاب عن يثرب.. بعدما عجزتْ عن إنجاز غايتها، وفشلوا في كسر محمد؛ ولا أحسبهم سيجتمعون عليه.. مرة أخرى!!؟

*****

خلال الأشهر اللاحقة.. تواترتْ علينا الأخبار أنَّ محمداً –حينما ارتدَّ عن الخندق- لم يضع سلاحه، ولم يغمد سيفه.. حتى قَصَّ رقاب بني قريظة الذين فَجَروا في عهدهم معه.. وائتمروا به.. مع أعدائه!

بل.. أكثر مِن ذلك: مضى يؤدِّب الأعراب الذين طمعوا في يثرب.. أثناء حصارنا له!!

لا غرو أنْ هذه الأخبار.. أدخلتْ الرهبةَ في أفئدة قريش.. وأفئدة أهل مكة أجمعين: "محمدٌ يزداد عِزًّ.. وقريش تزداد هواناً!!؟"؛ لا جرم.. انهارتْ آمالنا في استئصال محمد وصحبه.

أمَّا أنا.. فقد انهارتْ آمالي التي عقدتُها على غنائم تلك الحرب؛ فانكفأتُ خاوي الوفاض.. بل أشدّ خسارةً مِن ذي قبل.

تراجعتُ بذاكرتي إلى سالف الأيام.. وتأمَّلتُ حالي؛ فألفيتُ الأقدارَ -بعدما أغدقتْ علينا من خيراتها أعواما عديدة من المكاسب والأرباح- قبضتْ أيديها المبسوطة.

وأصابتنا سنون كاسدة.. خسرتْ فيها تجارتنا.. وتقلَّصت أرباحنا، وداهمتنا الفاقة، وتنكرتْ لنا الحياة.. بعد الوئام الذي كان بيننا.

رأيتُ نفسي.. أزداد فقراً؛ (**لا سيادة في قريش.. لمُملِقٍ! ولا حياة كريمة في مكة.. لفقيرٍ!؟**)؛ ذهبتْ نفسي حسرات، وانتابني شعورٌ مرير بالتضاؤل والانهزام، غدوتُ أهرب منه سيراً –**على غيرهدى**- في دروب مكة وشِعابها؛ فأحسستُ أنَّ الدروب والشِعاب.. يتنكَّرن لي؛ أحسُّ أنّي غريبٌ في بلدي، غريبٌ.. بين قومي وعشيرتي وأهلي؛ وما ذاك؟!!

غدوتُ أتبصَّر في القضية (**في شأن قريش ومحمد**)؛ فرأيتُ: محمد تتضاعف قوته.. وتتعاظم هيبته!؟ لا مِرَاء.. سيظهر على قريش؛ لقد ضيَّق الأرض علينا؛ فأمسى سلطان قريش.. في انقباض، ومُلْكه.. في انبساط!!؟ فماذا عني؟؟!

لو ظهر محمدٌ.. وظفر بي؛ سيفتك بي.. لا شك عندي في هذا!!؟ ...

ولإنْ ظهرتْ قريش –**ولا أحسب أنَّ هذا يقع**-؛ فلا عِزّ لي -وأنا فقير- بين أسيادها.. فما العمل؟؟! ...

لا تثريب عليَّ –إذاً- لو اِهتممتُ بشؤوني.. وأصلحتُها!!

ينبغي أنْ ألتفتُ إلى تجارتي.. لأستعيد رواجها، وأنْ أتعهَّد أموالي.. فأُنمِّيها؛ لن أتريَّث إلى أنْ يجوع عيالي!؟؟

اتَّخذتُ قراري بالترجُّل عن جوادي وإغماد سيفي.. وخلع درعي؛ سأعتزل صراع قريش مع محمد، وسألتفتُّ إلى خاصة شئوني!!

لكنّ قريش.. لن تفرِّط في جهودي، سيضغطون عليّ لمواصلة العمل معهم.. ولا سيما أبو سيفان.. وخالد.. وعكرمة؟!!

هؤلاء الثلاثة.. هم أغنى قريش؛ أمَّا أنا.. فلستُ مثلهم؛ لقد أصبحتُ فقيراً!! لن يتركوني وشأني!؟

إذاً.. عليَّ أنْ أرحل عن مكة.. ولو إلى حين؛ إلى حين أقف على قدميي من جديد، ثم أرجع إليها.. وأنا على ما أحب أنْ أكون: عمرو بن العاص.. سيد بني سهم؛ السيد الكريم.. ذا الثراء والسخاء!

يَجدُر بي أنْ أغيب عن مكة.. ريثما يُحسَم الصراع بين قريش ومحمد!!

لكنْ.. أين أذهب؟؟! أول ما خطر على ذهني: الحبشة؛ لكنْ.. هيهات!!

الحبشة –رغم مكانتها الطيبة في قلبي- لم يبقَ لي إليها رجعةٌ؛ كيف أرجع إليها.. بعد الجفوة التي وقعتْ بيني وبين أصحمة؟؟!

لو لم يكن اللجوء إلى الحبشة ممكناً؛ فإلى.. أين؟!!

فكَّرتُ في اليمن.. أو الشام، غير أنّي أحجمتُ عنهما؛ يد أبي سفيان الطُّولَى –هناك- ستلقتطني، ولسوف يُضيِّق عليَّ –في تلك البلاد- حتى أرجع إلى طاعته ومناصرته.. ضد أعدائه، ولن ينصلح –بذلك- حالي!؟؟

تراءتْ لي العراق.. وبلاد كسرى؛ بيد أنَّي لا أعرف تلك البلاد.. ولا أعرف أهلها، ثم خطرتْ لي مصر، وراقتْ لي.. ولا سيما أنّي أعرف عنها شيئاً كثيراً مِن خلال علاقتها بالنجاشي والحبشة.

عقدتُ العزم على الهجرة إلى بلاد القبط.. فراراً مِن الفقر.. وفرار من الانكسار أمام محمد!!؟

فيما أُخطط لرحلتي –وأتجهَّز لها.. **خُفْيَة**- تواردتْ عليَّ الأنباء –**وبغير سعي** مني- بأنَّ الأحباش تمرَّدوا على أصحمة، وثاروا عليه لِمَا شاع بينهم.. أنَّه يُنْوي أصحاب محمدٍ لاتباعه دينهم.. وتخلّيه عن دين الحبشة!؟؟

حدَّثتني نفسي أنَّ: **"هذا التمرُّد بإيعاز مِن ذلك الأسقف الكبير المُتشدِّد الذي حذَّرتُه –حين ودَّعتُ الحبشة- من أولئك الصابئين، وخوَّفتُه من تأثُّر أصحمة بهم وبدعوتهم!!"**.

ويحك.. أصحمة!؟ قد ضيَّعك محمدٌ؛ فارقتَ قومك.. وفرَّطتَ في مُلك أبيك وشرفه.. لأجل موالاة شرذمةٍ قليلين!؟؟

ثم جاءتني أخبارٌ جديدة سعدتُ بها –**ولا أدري سِرَّ سعادتي**- واستبشرتُ: لقد أجهض النجاشي ثورة المتمرِّدين، وقبض عليهم.. وعاقبهم، وعاد مُلْكه وحكمه للحبشة ثابتاً.. كما كان، واستقر على عرشه مرة أخرى.

فرحتُ.. لأصحمة؛ مهما كان الخلاف بيني وبينه.. فهو صديقٌ له تقديرٌ وحبٌ في قلبي، مِن تفاصيل الخبر التي بلغتني أنَّ: زعيم التمرُّد الفاشل.. كان –**فعلاً**- ذلك الأسقف المُتشدِّد، وأنَّ أصحمة اِقتَصَّ منه.

أمَّا الخبر الذي تضاعف استبشاري به -**وغيَّر وجهتي**- فهو أنَّ: أحد أركان ذلك التمرُّد الفاشل.. كان البطريق الذي جاء –**منذ سنين**- إلى والدي **(العاص)** باحثاً عن أصحمة.. ليُجلسه على عرش أبيه ويعيد إليه مُلْكه!؟؟

أقول: أنّي استبشرتُ بهذا الخبر.. لأنَّ أصحمة لم يقتص من ذلك البطريق، إنَّما صفح عنه.. لسابقته عند النجاشي، استبشرتُ لأنَّ ذلك الخبر يؤكِّد أنَّ أصحمة –كما عهدتُه- رجلٌ كريم.. ولا يجحد المعروف.

وإذا كان قد عفا عن البطريق لسابقته؛ فإنَّ لي سابقةً عنده مثله، فضلاً عن أنَّ خطيئتي أهون –بكثير- مِن جرمه؛ فلا عجب أنْ يعفو عني كذلك!؟

وأقول أنَّه غيَّر وجهتي: لأنّي فكَّرتُ أنْ أرتحل إلى الحبشة -دون مصر- مُعتذِراً.. ولاجئاً إلى النجاشي، وقدَّرتُ أنَّه سيقبلني.. لعلمي بكريم خلقه وسماحة نفسه؛ فقلتُ لنفسي: **(لا بلد غير الحبشة.. ولا معين إلا النجاشي.. أصحمة!!)**.

اِتَّخذتُ قراري بالنُزُوح إلى الحبشة، وأسررتُ بذلك لنَفَرٍ مِن قومي.. يسمعون نصيحتي ويطيعون رأيي؛ فكلَّمتُهم سِرّاً:

- والله.. إنّي لأرى أمر محمدٍ يعلو الأمور كلها علواً مُنكراً؛ وإنّي قد رأيتُ رأياً.. فما ترون فيه؟؟!
- ما رأيتَ.. يا أبا العاص؟؟
- أرى أنْ نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإنْ ظهر محمدٌ على قومنا؛ أقمنا عند النجاشي.. فأنْ نكون تحت يده أحب إلينا مِن أنْ نكون تحت يد محمد، فإنْ ظهر قومنا؛ فنحن مَن قد عرفوا.. ولن يأتينا منهم إلا خير!!؟

رضوا بنصحي.. هاتفين:

- إنَّ هذا لهو الرأي!!

توافقنا على الالتحاق بالنجاشي.. فقلتُ لهم:

- اجمعوا ما نهديه إليه؛ وإنّ أحب ما يأتيه مِن أرض الحجاز.. الأدم!

ثم شرعنا نجمع للنجاشي مِن الأدم الكثير.. حتى ندخل به عليه؛ عساه يقبل هدايانا.. ويُؤْوِينا في بلاده.

****

-الفصل الخامس-

ضغايِنُ إلى بلاد النجاشي .. مغامرة !؟

أجل!! مغامرةٌ.. محفوفةٌ بالمخاطر؛ فقد يرفض النجاشي لجوئي إليه، بل ربما يطردني مِن بلاده؛ ولا سيما بعدما رَدَّني -مِن عنده- خائباً، ونقم عليّ.. و رَدَّ هداياي.. منذ سنواتٍ قليلة!؟؟

لكن.. لا محيد عن تلك المغامرة؛ فإنَّ نجم محمد في ظهور، ونجم قريش في أُفُول، ولن أُمكِّن محمداً مِن رقبتي!!

ثم إنّي أغامر -في تلك الرحلة- بنفسي.. عاشماً أنْ تكون نفس أصحمة قد صفتْ.. بعد مرور تلك السنوات، وأنْ يكون.. عفا عمَّا مضى، وإنّي لأطمع أنْ ألقى منه سماحةً وكرماً.. كما عهدتُه، وأرجو أنْ أجد -في أرض الحبشة- رواجاً لتجارتي.. وسعةً في رزقي!!

انطلقتُ ورفاقي.. نَجِدّ في السير إلى بلاد النجاشي.. حتى بلغناها في أقصر مَدَى، جمَّعنا هدايانا التي اصطفيتُها مِن أحب الأشياء إليه، ثم جازفتُ.. واستأذنتُ أنْ ألقاه!!؟

أقول: (جازفتُ)؛ لكنّي لم أجد لتلك المجازفة.. بديلاً، وقد شجَّعني على تلك المجازفة: أنّي جئتُ -هذه المرة- لائذاً بالنجاشي.. مثلي مثل جعفر وأصحابه؛ وإنّي أطمع أنْ ألقى من سماحته وكرمه.. ما يُؤمِّني عنده!

ترقَّبتُ الإذنَ بالدخول عليه.. والقلق يقرض أعصابي، غير أنَّ أصحمة صدَّق ظَنِّي فيه؛ أذن لي.. ولقيني -كما أُحِب أنْ يلقاني- بسماحة نفس وحسن

ترحاب، وضرب صفحاً عما وقع مني –آنفاً- .. لَمَّا كاشفتُه أنّي جئتُ مستجيراً به.. لاجئاً إلى بلاده؛ قلتُ.. مُتضرِّعاً:

- ضاقتْ بي الأرض.. ورجوتُ أنْ أجد السعة في جوارك.. أيها المَلِك!!

وضع جناحه لي، وسمح لي –ولرفاقي- بالإقامة في جواره، وأباح لنا العمل بالتجارة في بلاده؛ شكرتُ له.. وأثنيتُ عليه، واستبشر رفاقي.

*****

رغم هجرتي -إلى الحبشة- لم تنقطع عني أخبار مكة.. ولا أخبار قريش وحربها مع محمد؛ فبلغني أنَّه زحف إلى مكة.. زاعماً أنَّه جاء معتمراً ومُعظِّماً للبيت الحرام، وأنّ صداماً أوشك بينه وبين قريش.. لولا أنْ جنحوا للسلم، وتعاقدوا على الصلح بينهم.. على أنْ يرجع عن مكة عامه هذا، ثم يأتي معتمراً في العام الذي يليه، وقد تعاقدوا على هدنةٍ.. قدرها عشر سنين!!

تلك الأنباء وحنيني إلى البلد الحرام.. دفعاني لإعادة التفكير في أمر مفارقتي لمكة؛ فرجعتُ أتدبَّر في الأمر: ربما لو عُدتُ إلى مكة –خلال هذه الهدنة- أفوز بما كنتُ أنشد.. حين فارقتُها منذ شهور!!؟

تردَّدتُ.. يسيراً؛ لكنّي آثرتُ الرجوع إلى بلدي وقومي.. دونما أقطع صلتي بالحبشة، ودون أنْ أخسر الآصرة –بيني وبين أصحمة- التي عادتْ كما كانت.. وأينعتْ لي ثمارها.

جَهَّزتُ هدايا قيمة.. وهيَّأتُ نفسي قائلاً لها: "أدخل على النجاشي.. فأستأذنه في الرحيل إلى مكة؛ ثم العودة بتجارةٍ أكبر!!؟".

بينما أنا عند القصر -أنشد مقابلة المَلِك- إذ رأيتُ عمرو بن أمية الضمري؛ حدَّثتُ نفسي: "هذا –والله- فاتك بني ضمرة الذي خذلنا بعد وقعة أُحُد، وفارقنا.. واتَّبع محمداً، وقتل مِنّا رجالاً.. وحاول اغتيال أبي سفيان، وما جاء إلى هنا.. إلا لشرٍ يُصيب به قريش!".

تربَّصتُ حتى انصرف، ثم استدرجتُ بعض الحرس.. وعرفتُ: أنَّه زعم أنَّه يحمل رسالةً للنجاشي، والتمس لقاء المَلِك؛ فأذن له!؟

تساءلتُ –في دخيلتي- مُندهِشاً: "لا جرم.. يحمل رسالةً من محمد!؟ ألا يذكر أصحمة أنَّ هذا الرجل ينتمي إلى بني ضمرة الذين استعبدوه وأهانوه.. وسخَّروه ليرعى الإبل في باديتهم؟!!".

قلتُ.. في نفسي: "لعلّه.. لا يذكره!؟ أو ربما هذا الضمري الخبيث يُخفي عنه حقيقته!؟ وأيم الله.. لأفضحه عنده.. ولأغرينه به!!".

ثم واتتني فيه خطةٌ.. استحسنتُها، وهمستُ.. مُغتبِطاً: "أنعم بها من خطة! تالله.. إنَّها الغنيمة الباردة!!"؛ لقد عزمتُ أنْ أسأل النجاشي أنْ يُعطيني هذا الضمري الصابئ.. فأضرب عنقه!!

وأيم الله.. لإنْ فعلتُ.. لسُرَّتْ قريش، وأكون قد أجزأتُ عنها حين قتلتُ رسول محمدٍ، وساعتئذ.. أكون قد أحرزتُ لقريش ما لم يحرزه أحدٌ، وأكون قد حفظتُ لنفسي مكانةً عزيزةً.. لا يُنازعنيها قرشي غيري.. أبدا!!

دخلتُ على النجاشي فعظَّمتُه.. وسجدتُ له كما كنتُ أصنع، ثم قرَّبتُ إليه هديتي؛ فأعجبته، رأيتُ طيب نفسه بهديتي وبلقائي.. فاستأذنتُ أنْ أتكلَّم؛ فأذن لي.. ثم قلتُ:

- أيها الملك! إنّي قد رأيتُ رجلاً خرج مِن عندك.. وهو رسول رجلٍ عدوٍ لنا؛ قد وَتَرَنا.. وقتل أشرافنا وخِيارنا؛ فأعطنيه.. فأقتله ...

لم يمهلني لأُكمِل حديثي؛ وثب إليّ غاضباً.. ورفع يده فضرب بها أنفي ضربةً.. ظننتُ أنَّه كسره، وابتدر منخاري، فجعلتُ أتَلَقَّى الدم بثيابي، وأصابني مِن الذُّلِّ ما لو انشقتْ بي الأرض لدخلتُ فيها رهبةً مِن غضبته.

ارتبكتُ تَهيُّباً له.. ثم استجمعتُ نفسي.. وقلتُ في خضوع:

- عذراً.. أيها المَلِك! لو ظننتُ أنَّك تكره ذلك؛ ما سألتُك!!

سكَّن غضبه.. وخاطبني زاجراً:

- يا عمرو! هل الملوك.. يقتلون الرسل؟!!

- إنَّه من بني ضمرة.. الذين ...

تهيَّبتُ أنْ أُذكِّره بالأيام الخالية.. التي كان فيها عبداً لبني ضمرة؛ فأمسكتُ لساني، غير أنَّه رنا إليّ طويلاً، ثم هتف.. بنقاء سريرة:

- تريد أنْ تُعلمني أنَّه مِن بني ضمرة الذين كنتُ لهم عبداً ذات يومٍ؟!

- حاشاني أنْ أسِم مولانا المَلِك بهذا الوَسْم الشنيع؛ على أنّي ظننتُ أنَّهم يستحقون العقاب لإهانتهم لكم في سالف الزمان!!؟

- بل.. كنتُ كذلك!! وأقسم بربي.. أنّي تعلمتُ في تلك الأيام أعظم درس في حياتي، ولقد ازددتُ يقيناً بربي.. وحباً له!!

- ..... !؟ سكتُّ.. مندهشاً؛ فاسترسل في حديث الذكريات:

- تذكر -يا عمرو- حينما قلتَ لي: "إنَّ الأديان كأغراس الشجر؛ فما يصلح زراعته في الحبشة.. قد لا تستقيم زراعته في أرض العرب!"؛ لقد لبثتُ أمداً أتفكَّر في تلك المقالة، وما قنعتُ بها أبداً؛ قلتُ:

الشـجر يُغـرَس في الأرض، والأرضـون تختلـف في تربتهـا ومياههـا وهوائهـا، أمّـا الـدين فـيُغرَس في القلـب، وقلـوب النـاس واحـدة في تركيبها –مضغة تنبض بالدم-؛ فلِمَ لا تتفق تلك القلـوب على دينٍ واحد.. كما اتفقتْ في تركيبٍ واحد؟!!

- .....!؟؟

- قد يختلف البشر في ألسنتهم وألوان بشرتهم، لكن كلهم لهم نفس الـدم الأحمـر.. ونفـس القلـب النـابض، وذلـك دليـل عـلى أنَّ ربهـم واحـد!!؟ فـلماذا لا يكون لهـم دينٌ واحـد؟؟! لماذا لا يجمعهم الـرب على شريعةٍ واحدة؟؟!

- ..... !!

- سـؤالٌ حائر.. شـغل عقلي وقلبي عمراً طويلاً.. حتى جاءتْني إجابته بظهور جعفر وأصحابه، ومع ذلك الضمري.. الذي تريد قتله!!

ظلَّ يحدِّثني –كأنّما يُكلِّم نفسه- دونما يلتفت إليّ، ثم نظر.. فرأى أنفي ينزف حتى تَلَوَّثتْ ثيابي مِن الدماء؛ فاستحيى.. وخاطبني مُعاتِباً:

- يا عمرو! تسألني أنْ أُعطيك مبعوثَ رسولِ الله: مَن يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى.. والذي كان يأتي عيسى؛ لتقتله؟!!

باغتني قوله.. فسألتُ –باستعظام- مُندهِشاً:

- أ تشهد له بهذا.. أيها المَلِك؟؟!

أجابني.. بيقينٍ ثابت:

- أجل!! أشهد به عند الله!

ثم أردف.. مُحضِّضاً:

- ويحك.. يا عمرو! أطعني.. واتَّبعه، والله.. إنَّه لعلى الحق، وليظهرنّ على كل دينٍ يخالفه.. كما ظهر موسى على فرعون وجنوده!

بسط يده –مشيراً إليّ أنْ أُصافحه-.. فاستلمتُ يده، شَدَّ على يدي.. هاتفاً:

- بايعني على الإسلام.. يا عمرو!

لم أجد مهرباً.. فبايعتُه؛ تَهلَّل وجه.. وسُرَّ بذلك سروراً عظيماً، ثم دعا بطست.. فغسل عني الدم، وكانت ثيابي قد تَلَوَّثتْ مِن الدماء؛ فكساني ثياباً غيرها، ثم خرجتُ مِن عنده.. ذاهلاً عَمّا حولي، وأخفيتُ ما وَقَع بيني وبينه.. عن رفاقي، وأضمرتُ في نفسي أمر الإسلام.

ثم عرفتُ –بعد أمدٍ قصير- أنَّ الضمري.. جاء إلى النجاشي ليرسل معه جعفرَ ومَن بقي في الحبشة مِن المسلمين، وأنَّ النجاشي جهَّز سفينتين لتحملهم إلى محمد.

رحل جعفر وأصحابه عن الحبشة، واعتزلتُ بلاط النجاشي.. وشغلتْه عني شئونُ دولته، وبقيتُ مع رفقائي القرشيين.. وقد أكننتُ عنهم أمر البيعة التي بايعتُه إياها، بيد أنَّ قلبي تَغيَّر؛ لم أعد عمرو الذي كان آنفاً.

*****

أصبحتُ أشعر بالوَحْشَة بين إخواني وأصحابي، حُبِّبتْ إليّ العزلة، وكثيراً ما كنتُ أنزوي بعيداً عنهم.. وعن الناس أجمعين، نسيتُ رفاقي.. وتجارتي التي جِئتُ –إلى هنا- لأُنمِّيها، وأسترجع بنمائها مكانتي بين أسياد قريش!؟

نسيتُ قريش.. وأبا سفيان.. وصراعنا مع محمد، نسيتُ كل شيءٍ.. وما أصبح يشغلني سِوَى البيعة التي بايعتُها النجاشي.

تعاقبتْ أيامٌ.. ومَرّتْ أسابيعٌ؛ وغدوتُ أهيم على وجهي.. أغادر أبواب المدينة، وأسير -حيناً- في شِعاب الجبل، وأحياناً.. أُمعِن في الابتعاد؛ فأمشي وسط أعشابٍ صفراءٍ طويلة، وأحياناً أُواصل المَشْي تحت الأمطار.. دونما أنتبه لقدميّ اللتين تخوضان في الأوحال.

الشهور.. كَرّتْ؛ وتَبدَّل الصيف.. شتاءً، وانقطع.. المطر، أقبل مَوسم الجفاف، وتَحَوَّل صيف هذه البلاد المَطير إلى شتاءٍ قاحل، ودرجتُ على السَيْر فوق أرضٍ سوداءٍ جرداء.. تشقَّق وجهها اشتياقاً لماء المطر.

ودأبتُ على هذه الحال.. ليلاً ونهاراً؛ أرقب الشمس والقمر.. يتعاقبان على احتلال رقعة السماء، تجتالني الحَيرة والظنون.. وتتقاذفني الهواجس والأفكار: هل أشك في عقل النجاشي.. أو في حكمته؟! لم أعهده إلا رجلاً راشداً، وهو ذو علمٍ بدين المسيح.. وكُتُب اليهود والنصارى؛ ها هو ذا يعترف –أمامي- بإيمانه بدين محمد، بل.. ويشهد بأنّ الناموس الذي كان يأتي موسى وعيسى.. يأتي محمداً!!؟

هل النجاشي رجلٌ أحمق؟؟! هل يستطيع محمد –أو أحدٌ من أصحابه- أنْ يخدع النجاشي عن دينه؟؟!

لا أظنّ أنَّ أحداً منهم يستطيع ذلك! إذاً.. كيف لم أفطن –مِن قبلُ- لِمَا فطن إليه أصحمة، ومِن قبله أخي (هشام).. وأمثاله مِمَن آمنوا بدين محمد؛ كيف لم أَرَ ما رأوه؟؟ كيف لم أعقل ما عقلوه؟؟!

أيهما أفضل: دين العاص بن وائل، أم.. دين النجاشي (أصحمة)؟!

لا جرم.. دين العاص؛ دين قريش.. خيرٌ مِن دين الحبشة!!

لا دليل أوضح مِن الطير الأبابيل.. وما جرى لجيش الفيل –قديماً- عندما جاء يهدم الكعبة!!؟

إذاً.. لا تثريب على النجاشي أنْ ينخلع مِن ذلك الدين، لكنّه.. لم يدخل في دين قريش؟! دخل في دين محمد!!

وهل محمدٌ إلا رجلٌ -مِن عبد مناف- مِن قريش؟!

كلا!! دين محمد.. ليس دين العاص بن وائل، ليس.. دين قريش!!؟

ماذا كان ينقم العاص.. مِن دين محمد؟!

كثيراً!! لقد أوغل محمد في الإلحاد: جعل الآلهة إلهاً واحداً، وكذا.. زعم أنَّ ثَمَّة بعثاً ونشوراً.. بعد الموت؛ ومِن ثَمّ.. حسابٌ.. ونعيمٌ وعذابٌ، وهل عاقلٌ.. يؤمن بهذا؟!!

لكن.. إذا كان دين العاص خيراً مِن دين النجاشي؛ فكيف تكون حياة العاص أبأس مِن حياة النجاشي؟! كيف يُنعَّم النجاشي كما هو مُنعَّم بملكه؟!! وكيف يشقى العاص أكثر منه؟؟!

الأَوْلَى أنْ يكون أهل دين الرب أحب إليه -وأحسن تَنَعُّماً بعطاياه- مِمَن سواهم؛ وقريش ومكة.. ليستْ أنعم مِن النجاشي وأكسوم، ولا حتى كسرى والمدائن.. ولا قيصر والشام؟!!

إذا كان دين النجاشي.. خيراً مِن دين العاص؛ فما الطير الأبابيل.. إذاً؟!! إلا أنْ تكون حياةٌ أخرى يُدخَر فيها النعيمُ للأرشد ديناً؛ وهذا ما يقول به محمد!!؟ وكان يطعن فيه العاص بن وائل!!؟

ليس العاص وحده؛ بل.. الوليد بن المغيرة.. وأبو الحكم.. وأبو سفيان.. وغيرهم مِن ذوي الأحلام؛ جميعهم طعنوا في دين محمد.. وكذَّبوه، وجميعهم

لهم فضلٌ وسنٌ ومكانةٌ.. لهم حلومٌ كالجبال؛ كانوا لا يسلكون فجاً.. إلا وجدناه سهلاً!!؟

ماذا لو كان أولئك الآباء.. خاطئين؟؟! كيف نُقلِّدهم فيما ذهبوا إليه مِن عداوة محمد.. دون أنْ نتفكَّر؟!! كيف ننكر عليه مِن غير أنْ نسمع منه.. ونُعمِل العقل فيما يقول؟؟!!

قد سمعتُ –رغماً عني- مِن أخي (هشام)، ولم أُنكِر مما سمعتُ شيئاً؛ إنَّه دينٌ يحُثُّ على النجاح والفلاح.. ومكارم الأخلاق، لم أجد فيه ما يسوؤني.. سِوَى أنَّه جعل الآلهةً إلهاً واحداً!!؟

لكن.. أ إلهٌ واحدٌ خير.. أم أربابٌ مُتفرقون؟!!

تالله.. لإنْ تدبَّرتُ.. لأيقنتُ أنَّ الآلهة يجب أنْ تكون إلهاً واحداً!! أ رأيتُ لو اجتمع أربابٌ شركاءٌ في عبدٍ واحدٍ؛ ألن يتخاصموا فيه؟؟! كيف –إذاً- لا يتشاكس كل أولئك الأرباب في الشمس والقمر؟!! والذي يُحلَف به.. إنَّه لإلهٌ واحد؛ لم أعد أرتاب في هذا!!

لكن.. كيف يكون بعثٌ بعد الموت؟؟ كيف يُنشر الناس –مرة أُخرى- بعد أنْ صاروا رميما؟؟! هذا ما لا يستوعبه عقلي، وهذا.. ما لا إجابة له!!؟

*****

مكثتُ -أمداً آخر- حائراً!!؟ تراجعتُ عن فكرة عودتي إلى مكة، وحاولتُ أنْ أُعنى بشئوني ومالي.. مُستأنِفاً التجارة في أسواق الحبشة، لكن.. ما بارح قلبي شعورٌ مقيتٌ بالغربة والانقباض، وما انفكتْ السآمة تلازمني أينما تَوَجَّهتُ، والحيرةُ.. ما فتئتْ تفترس عقلي!!

لـم أزل قلقـاً مُضـطرباً.. ولـم تزايلـني السـآمة، وربمـا أصـابني القنـوط.. ولا سـيما إذا جَـنَّ الليـل وغطى بسـكونه أهـلَ الأرض، في ليـالي كثيرة.. كان الأرق يسـتبد بي.. ويُطبـق الضـجر واليـأس بأصـابعهما البغيضـة عـلى قلـبي.. حـتى يضيق صدري!!

ودارتْ الأيـام.. وحَـلَّ مَوْسـم الأمطـار، اختنقـتْ أنفاسـي.. وثقـل هـواء تلـك الـبلاد اللـزج عـلى صـدري، بيـد أنّي أبصـرتُ -ذات صـباح- بـعيني.. وأدركـتُ بعقلي؛ رأيتُ الأرض الجرداء تنشقّ.. وينبت فيها الزرع، أبصرتُ الحياةَ تدبّ في الأرض الميتة مِن جديد.
شاهدتُ الأوابد تُقبِل إليها.. بعدما فارقتها إبَّان موسم الجفاف!!؟

كيف حدث هذا؟!! هل السماء هي التي سكبتْ مطرها؟؟ وهل الأمطار هي التي أحدثتْ تلك الحياة الجديدة؟!! أم.. هل الأرض هي التي أخرجتْ نباتها؟! ربما كنتُ أرى هذا المشهد مِن قبلُ، بل.. لقد رأيتُه كثيراً؛ على أنّي لم أتبصَّر فيه قبل اليوم: مَن الذي أنزل هذا المطر مِن هذي السماء؟!! مَن الذي أحيّا به الأرض.. وأحيّا به هذه الكائنات؟؟!
لا جـرم أنَّـه الإلـه الـذي خلقهـا!! ولا مـراء أنَّـه قـادرٌ عـلى إحيـاء النـاس بعـد موتهم.. كما أحيّا هذه الأرض؛ أليس هو الذي أوجدهم أول مرة؟!
وأيـم الله.. إنَّـه للحـقُ، ولا حـق غـيره؛ إنَّ الخـالق واحـد.. والإلـه واحـد، والـذي أحيّـا أول مـرة.. قـادر عـلى الإحيـاء مـرةً أخـرى، وإنَّ محمداً لـصادقٌ، وإنَّـه يأتيـه ناموس السماء.. كما شهد له أصحمة!!

قد ظهر الحق.. وعرفتُه.. وأيقنتُ به؛ علاما الانتظار؟؟! لِمَ أبقى -ها هنا- غريباً.. شريداً؟؟! عليَّ أنْ ألحق برسول الله!!

انكفأتُ إلى بلاط النجاشي،و ولجتُ إلى أصحمة، الأمر أعظم عندي من التزلُّف.. والنفاق الذي كان مني آنفاً؛ فابتدرتُ.. هامساً:

- جئتُ أستأذن جلالة المَلِك.. في الهجرة إلى رسول الله!!

تهلَّل وجهه.. وانبسطتْ أساريره.. هاتفاً بحماس:

- أنعم به من قرار! ثبَّتك الله على الحق.. يا عمرو!
- شكر الله لك –أيها المَلِك- فأنت مَن أنار لي الطريق، وأرشدتَني إلى الحق.. بعدما كنتُ أتخبَّط في ظلمات الباطل!
- ليس الخبر كالعيان.. يا عمرو! ولو استطعتُ أنْ آتي النبي لآتيته؛ فأكون عنده.. أخدمه وأحمل نعله، لكن أعواني –مِن الحبشة- قليل، فإنّي أنتظر حتى أكثر الأعوان وألين القلوب!
- أعانك الله.. أيها المَلِك!!
- قد اعتزمتُ إرسال ابني (أرها بن أصحمة) إلى النبي ﷺ في ستين رجلاً من قومنا، ليُبايعوه على الإسلام، ويلبثوا عنده حيناً يتعلمون فيه الدين، ثم يعودون بهذا الهدى إلى أرض الحبشة.. عسى أنْ يهدي الله أهلها إلى الرشاد ويسلموا لله رب العالمين!!
- وفقكم الله.. لما فيه الرشاد!!
- أقترح عليك أنْ تتريَّث حتى أُجهِّزهم، ثم تنطلق معهم إلى رسول الله!
- أُحبذ أنْ أغادر وحدي، فإنَّ لي شئوناً في مكة.. ينبغي أنْ أُسويها قبل الهجرة إلى رسول الله، وقبل أنْ تعلم قريش بنبأ إسلامي!

- على بركة الله! صحبتك السلامة.. يا عمرو!
- أستودعك الله.. يا خير صديق، ويا أعدل مَلِك!!

****

-الفصل السادس-

وطّأت بلاط النجاشي.. مفارقاً الظلمة إلى النور، والضلال إلى الهدي، والباطل إلى الحق، والجهل إلى العلم؛ وما اهتديتُ إلى ذلك إلا بفضلٍ مِن الله الذي سخَّر لي النجاشي (أصحمة)؛ فالحمد لله!!

يسر لي الله سبيل الذهاب.. حيث انطلقتُ مع سفينة حبشية، أبحرتْ بي في البحر.. حتى نزلتُ في مرفأ الشعيبة، ثم سلكتُ الطريق إلى مكة.

انسللتُ.. إلى مكة، ودلفتُ إلى بيتي.. فألفيتُ الحال قد تغيَّر؛ هرب أخي (هشام) -من محبسه- إلى يثرب، وكذا.. هاجر ولدي (العاص) إلى رسول الله؛ فرح به وسمّاه: عبد الله، وألفيتُ زوجتي (ريطة) قاب قوسين مِن الإسلام.

استبشرتُ خيراً.. وكاشفتُ زوجتي بحقيقة إيماني ورغبتي في الهجرة؛ فتحمَّستْ وشجَّعتني.

على أنّي كتمتُ إسلامي عن القوم.. حتى أتهيَّأ للهجرة دونما تؤذيني قريش في نفسٍ ولا أهلٍ ولا مال، تربَّصتُ.. إلى أنْ تواتيني السانحة.

وفيما أنا على تلك الحال.. سُئِلتُ عن النجاشي؛ أجبتُ باقتضاب:

- أصحمة.. يزعم أنَّ صاحبكم نبيٌّ.. يأتيه الناموس الذي كان يأتي موسى وعيسى!!؟

ثم علمتُ بما جَدّ مِن أخبار: غزا النبي ﷺ خيبرَ، وكسر اليهودَ -فيها- شر كسرة.. ومَلَكها منهم؛ تالله.. قد صدق أصحمة.. إذ قال: "إنَّه لعلى الحق، وليظهرنّ على كل دينٍ يخالفه.. كما ظهر موسى على فرعون وجنوده!".

وأيم الله.. ازددتُ يقيناً بالإسلام، وما عُدتُ أحتمل بقائي بعيداً عن رسول الله؛ لا مناص من الهجرة إليه.. اليوم قبل الغد.

حزمتُ أمري وتوكلتُ على الله، وبينما أتأهَّب للهجرة.. إذ بلغني نبأٌ: قد غرقتْ السفينة التي كانت تحمل ابن النجاشي -وستين رجلاً من قومه- إلى رسول الله، ولقد ارتبتُ في أنَّها أُغرِقتْ بأيدي مُخرِّبين أرسلهم البطارقةُ الناقمون على أصحمة.. خوفاً من انتشار الإسلام في بلادهم؛ أسفتُ لذلك أسفاً شديداً، وأشفقتُ على أصحمة مما يُحاك حوله من مؤامرات؛ بيد أنّي لا أملك له حيلة، دعوتُ الله أنْ يُثبِّته ويدافع عنه!!

*****

في الليلة التي رصدتُها للهجرة.. هيَّأتُ دابتي.. وحملتُ زادي، ثم خرجتُ مُتخفياً.. حتى أتيتُ مر الظهران.

ثم مضيتُ حتى كنتُ بالهدة؛ فإذا رجلان -قد سبقاني بغير كثير- يريدان منزلاً، أحدهما داخل خيمة.. يُعِدّها لمستراحهما، والآخر.. قائمٌ -خارجها- يمسك راحلتين؛ نظرتُ إليه.. فإذا هو: خالد بن الوليد المخزومي؛ قلتُ:

- أبا سليمان؟!!
- نعم!!
- أين تريد؟؟!
- محمداً!! والله.. لقد استقام المَنْسِم.. وإنَّ الرجل لنبي، أذهب –والله- أُسلم.. فحتى.. متى؟!!
- وأنا -والله- قد أردتُ محمداً.. وأردتُ الإسلام!!

ثم جاء إلينا الرجل الذي في الخيمة؛ فإذا هو عثمان بن طلحة العبدري، رحَّب بي.. ونزلتُ معهما في منزلهما، ثم ترافقنا.. حتى قدمنا المدينة.

وما أنسى قول رجلٍ لقيناه عند مشارف المدينة.. يصيح: "يا رباح! يا رباح!"، تفاءلنا بقوله.. ثم أنخنا ركائبنا في ظاهر الحَرَّة.. ولبسنا مِن صالح ثيابنا، علم بنا بعض أخوة خالد مِن مسلمي مخزوم.. الذين هاجروا قبلنا؛ أَتَوا إلينا.. وقالوا:

- أسرعوا!! إنَّ رسول الله ﷺ.. قد أُخبِر بكم؛ فسُرّ بقدومكم.. وهو ينتظركم!!

أسرعنا المشى.. حتى طلعنا عليه.. وإذا وجهه مُتهلِّلٌ، والمسلمون –حوله- قد سُرّوا بإسلامنا، ما زال يبتسم لنا.. حتى دنونا منه، وقفنا بين يديه.. وسلّمنا عليه بالنبوة؛ فرَدَّ علينا السلام.. بوجهٍ طلق.

ثم تقدَّم خالد.. فبايع قائلاً:

- إنّي أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّك رسول الله!

ثم تقدَّم عثمان.. فبايع مثل خالد.

ثم اقتربتُ، فوالله.. ما هو إلا أنْ جلستُ بين يديه؛ فما استطعتُ أنْ أرفع طرفي إليه حياءً منه، ثم قلتُ:

- يا رسول الله! إنّي أُبايعك على أنْ يُغفَر لي ما تقدَّم مِن ذنبي، ولا أذكر ما تأخَّر!!
- يا عمرو! بايع.. فإنَّ الإسلام يَجُبّ ما قبله، وإنّ الهجرة تَجُبّ ما قبلها!

فبايعتُ.. وصدحتُ بكل خلجةٍ في نفسي:

أشهد أنْ لا إله إلا الله.. وأشهد أنْ محمداً رسول الله!

*****

لبثتُ في المدينة حيناً.. وكأنّي أُنشَّأ من جديد؛ بل.. لقد خُلِقتُ من جديد، التقيتُ بإخواني من المهاجرين والأنصار، والتأمتُ مع أخي (هشام) وولدي (عبد الله).. من جديد، وقرَّبني النبي ﷺ منه، وعلَّمني العلم بنفسه؛ ولقد كان خير معلمٍ.. بأبي –هو- وأمي.

فوالله.. ما عدل بي رسولُ الله ﷺ وبخالد بن الوليد.. أحداً من أصحابه.. في أمر حزبه منذ أسلمنا.

وجدتُ حلاوة الإيمان، وما سعدتُ في حياتي –أبداً- يوماً أسعد من تلك الأيام التي كنتُ أقضيها في صحبة رسول الله ﷺ.

لكن.. ذات يومٍ.. أصابتْ حلقي غصة، وداهم الحزن قلبي.. إذ طلع علينا رسول الله ﷺ.. لينعي النجاشي.. ويقول:

- مات –اليوم- رجلٌ صالح؛ فصلُّوا على أصحمة!!

ثم صَفَّ بنا للصلاة.. وكبَّر أربع تكبيرات، وصلَّى –بنا- عليه صلاة الغائب.

.. رحم الله النجاشي (أصحمة) .. وغفر له ..

****

تمت في: ربيع الآخر سنة ١٤٤٦ هـ

الموافق: أكتوبر سنة ٢٠٢٤ م